الباب الرابع
الأخـــلاق

الفصل الأول
معايير القـــيم

مع أن مذهب فرويد كان يمس القيم والأخلاق عن كثب شديد ، إلا أن فرويد كان يحاول ألا يتعرض ألبتة ، لإصدار الأحكام المعيارية على الأمور التى تصدر عن الفرد ، وهو كما يقول أصحابه : إن يكن ينظر إلى سلوك الفرد من ناحية الصحة والمرض ، فليس ذلك أكثر من نظر الطبيب إلى علل البدن ومظاهر صحته . ذلك أن طريقته فى العلاج تقوم على إخراج الصور والرغبات المخبوءة فى مجاهل النفس اللاشعورية إلى ضوء الحياة الشعورية ، دون التعرض لحسنها أو سوئها . قرر فرويد أن طريقته فى العلاج تقوم على إخراج ما فى اللاشعور إلى الشعور ، ويتوقف توفيق ذلك العلاج على مقدار التوفيق فى القيام بذلك. ودعا المعالجين إلى البعد بعداً تامًّا ، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، عن إسداء النصح للمريض ، أو إرشاده فى انتهاج السبيل الذى يسلكه فى حياته الخاصة ، أى أنه كان يرى أن عمله يقتصر على الاستقصاء النشوئى لحياة المرء السيكلوچية ، بوساطة الطريقة التحليلية ، يتلمس على ضوئها تطور ميوله الجنسية على الأخص ، والأخطاء التى اعترضت نموها . ومع أنه عرض لأشكال المرض ثم لأشكال التسامى ، والمثل العليا للحياة ، إلا أنه كان يحاول ألا يعرض لذلك عرض من يوازن بين الأمور من ناحية

الجمال أو الخير بل عرض الباحث الموضوعى ، الذى يتجنب النظر إلى العلل وما يتصل بها من أحكام ومعايير . وكان يدعو أتباعه إلى أن يحتفظ كل منهم بما يؤمن به من قيم لنفسه ما وسعه ذلك ، وأن يلقى على الإنسان تبعة أعماله كاملة يختار من ألوان التقويم والسلوك ما يهوى « فلم يكن من شأن فرويد — على أى وجه من الوجوه — أن يتخذ المرء لنفسه هادياً من مبادئ عيسى أو بوذا أو كانت أو نيتشه »(١)

أما أدلر فقد غرق حتى أذنيه فى الحديث عن المعايير ، وفى أحكام القيم حتى أشبعت سيكلوچيته — فى ذلك الجانب أيضاً — لوناً فلسفيًّا فاقعاً ، انسرب حتى طريقته فى العلاج . فارتأى هو وأتباعه أن يكون العلاج تربية جديدة للإنسان ، فيها إصلاح لما اعوج من أمره ، ورفع وتقويم لما زاغ من مثله ، حتى يهتدى إلى السبيل الذى يرون أنه يستقيم مع حياته بين بنى جنسه .

رأينا من قبل أن أدلر اعتبر الشعور الاجتماعى ، أحد العمد التى تقوم عليها نفسية الإنسان ، بل اعتبره العماد الذى يلى القصور أهمية فى تحديد سلوك الفرد . وهو لهذا يقرب ، عند البحث فى أشكال السلوك والأخلاق ، قرباً شديداً من مذهب المنفعة العامة ، غير أن « المعيار الذى نستطيع أن نزن به الفرد ، هو قيمته للجنس الإنسانى عامة »(٢) كما « أننا فى الحكم على أخلاق الفرد ينبغى أن نسترشد بمقدار نفعه للجماعة ، وعمله على هناء الإنسانية كلها »(٣) ، — حتى إنه ليقرر أنه لا يمكن فهم التفكير أو الانفعال نفسه ، إلا بالنظر إلى مقدار ما فيه من منفعة عامة ، هذا إلى أن السرور من الجمال ، يقوم على أن التعرف على الجميل ، وفهمه ، والشعور بما فيه من جمال ، أمر عام مشاع بين الناس جميعاً . « ومن ثم كانت الأفكار والكليات مثل العقل والفهم والمنطق والأخلاق والجمال تصدر كلها وتنشأ من حياة الناس

(١) Pfister : *Some Applications of Psychoanalysis*, p. 166.

(٢) Adler : *Understanding Human Nature*, p. 32.

(٣) Ibid, p. 171.

الاجتماعية ، وهى — فى نفس الوقت — أربطة وثيقة بين الأفراد ، يبتغون منها منع المدنية من التفكك » .

فإذا بدأ أدلر يعرض للأخلاق رأى أن الإنسان بطبعه لا يعرف الخير أو الشر . وإذا تحدث عن المعايير الخلقية قال إنه ينبغى أن تحكم على الفعل لا فى نفسه ، بل على ضوء حياة المرء كلها ، والظروف التى تحيط به . ويدعو إلى أن الحكم ينبغى أن يصدر على النية نفسها . وهو معجب لذلك بمن يقول : « إننى لم أفحص ألبتة روح رجل شرير ، لكننى قمت مرة بفحص روح رجل طيب فتراجعت هلعاً »[1] — فلعل المرء إذا فاض كرمه ، وكثر إحسانه وبذله ، لم يكن يبتغى فى ذلك البذل سوى عون على تحقيق رغبته فى القوة ، يغنيه عن طرائق الكفاح والهجوم الأخرى ، أو عن التقتير أو البخل وما يخلعه على صاحبه من شعور بالأمن وبلذة الجمع والتحصيل ، لأن المرء فى تظاهره بالبذل وما يحاط به من مظاهر التكريم ، ومما يستشعره لذلك من رضى ، يعطى — فى الواقع — أقل بكثير مما يأخذه .

وإذا تحدث أدلر عن السوىّ والشاذ ، ومن ثم عن الخير والشر ، لم يفرق بينهما تفرقة تميز هذا من ذاك تمييزاً واضحاً محدوداً ، بل قال إن من الخطأ أن نلتمس فى سلوك الشاذ ، من ألوان السلوك ، ما لا يوجد فى نفس الإنسان السوى ، إذ ليس بينهما من فرق إلا اختلاف فى الدرجة فحسب ، ذلك لأنه يقول : إن فحصه للأمراض النفسية والعصبية ، أثبت له أن الشذوذ والعقد والأخطاء التى يقع فيها المرضى ، ليست مختلفة فى تكوينها عن نشاط العاديين من الناس « والفرق الوحيد هو أن تلك الأمور تكون فى الشخص المريض أكثر ظهوراً وبياناً » .

فكأنه يقول هنا برأى أرسطو فى الأوساط ، وبأن الفضيلة فى الاعتدال أى أن الصحة (أو الفضيلة) وسط بين طرفين : هما الإفراط والتفريط . وهى

---

(١) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 128.

كما قال أرسطو أيضاً، وسط بالإضافة إلينا يتغير تبعاً للأفراد والأحوال، فالتزام الوسط الفاضل يجب أن يراعى فيه « من وأين ومتى وكيف ولمَ » — ويردد أدلر مثل هذا حين يذكر : أن تقويم خلق الإنسان ، لا يمكن أن يكون ، إلا إذا عرفنا ظروف عيشه وشكل بيئته والبواعث التى تدفعه إلى انتهاج السبيل الذى يسير فيه . وإذا كان أرسطو قد ذكر أن الشجاعة وسط بين التهور والجبن ، وأن الاعتدال وسط بين الشره وجمود الشهوة ، وأن السخاء وسط بين التبذير والبخل ، فقد عرض أدلر عند حديثه المستفيض المفصل عن الحالات الشاذة ، إلى الحكم عليها بذلك لإفراط صاحبها أو تفريطه ، وحكم على أصحابها لذلك بالمرض : فشدة التقشف أو الإسراف فى الشهوة مرض ، وشدة الولع بالارتحال أو الاستقرار مرض ، والإمعان فى القسوة أو الشفقة مرض ، وصاحب الضمير المتبلد مريض مثله فى ذلك مثل من يبالغ فى الشعور بالنبل ومن تطغى عليه روح الفروسية فيحاسب ضميره حساباً أشد مما يطلب إلى الفرد فى الظروف السوية .

ويقول أدلر بالاختيار ، فينقض رأى الجبريين الذى يقول بأن كل نشاط إنسانى يخضع لما يحدده كما يخضع المعلول للعلة ، غير أنه لا يطلق ذلك الاختيار إطلاقاً بل يرى أن المشاكل التى تقابل المرء ، والمواقف التى تعترضه ، تعين له ، إلى حد كبير ، السبيل الذى ينتهجه فى حياته .

هكذا نرى أن أدلر وأصحابه قد عرضوا ، بل قد أغرقوا عامدين فى البحث عن مسائل القيم والمثل العليا ، وهم يبررون ذلك بأن طبيعة الموضوع الذى يعملون فيه تلزمهم إقامة المعايير ، كما يقيمون الأوصاف . ويقولون إنه إذا كان من الممكن تحديد شكل النمو السوىّ للحياة الإنسانية ، وتعيين المثل الأعلى الذى ينحو إليه هذا النمو ، كان لا بد أن يعتبر كل طراز من السلوك ، يوازى ذلك السبيل « صواباً » ، بينا يعتبر غيره « خطأ » .

ومع هذا فهم ينكرون أن معيار القيمة الذى يختفى فى ثنايا هذا الرأى ،

يمكن أن يعتبر نظاماً أخلاقيًّا ، ويرون أنه من الأصح أن يعتبر معياراً صحيًّا ، والفرق بين هذا المعيار وبين المعيار الأخلاقى ، كما يقولون ، هو مثل الفرق بين الأمر الشرطى ، والأمر المطلق الذى يقول به كانت . ويدعون أن المعايير الأخلاقية معايير سامية مطلقة . أما المعايير الصحية ، التى يصطنعونها ، فليست مجردة ، لأنها لا تصلح ، حتى من الناحية العملية ، للتطبيق تطبيقاً عامًّا ، فالمعيار الصحى إذن معيار عملى : فإذا عرض العالم للماء غير الصالح للشرب قال : « إذا شربت هذا الماء ، فقد تصاب بحمى التيفويد ، ومع أن أحداً لا يرغمك على الامتناع عن شرب هذا الماء ، حتى تبعد عن خطر التيفويد ، فإنك إن أردت البعد عنه وجب عليك أن تتبع ما تنصح به » ، وهم يرون أنه إذا كان كثير من الناس يتبعون الوصايا الصحية اتباعهم للأوامر المطلقة ، فإن ذلك لا يقلل من الفرق بين هذه وتلك ، وهكذا يقررون أن وصايا السيكلوجية الفردية ، وأحكامها هى من صنف الوصايا الصحية .

غايات الحياة

يرى أدلر أن للإنسان مسائل ثلاثاً فى حياته ، يعتمد حل الواحدة منها على توفيقه فى حل المسألتين الأخريين : المسألة الأولى هى مسألة العمل ، فهو يرى أن الإنسان يعيش على سطح هذه البسيطة ، وتقوم حياته على ما بها من خصب ، وما فى باطنها من معدن ، وتتحكم فيه عوامل الطبيعة والمناخ ، وهو لهذا دائم الجهاد لحل المشاكل التى تعترض سبيل حصوله على عيشه . كما أنه يجهد أكثر من ذلك لزيادة رفه هذا العيش ورغده ، والإقلال من الجهد الذى يبذله للحصول عليه .

وخير الحلول التى تجدى للتغلب على هذه المشكلة الأولى تعتمد على حل المشكلة الثانية وهى : إحسان العيش وسط المجتمع ، فإذا كان على المرء أن

يعيش بين بنى جنسه ، بل إذا كان حب التجمع فطرة فيه ، فإن على الفرد أن يلائم بين نفسه وبين مقتضيات بيئته وأوضاع الجماعة التى يعيش فيها ، وليس أجدى عليه فى سبيل ذلك من الصداقة والتعاون وروح الألفة .

وإذا كان من المسلم به أن اهتداء الإنسان إلى تقسيم العمل ، هو خير ما دفع به نحو ما هو عليه من تقدم وحضارة ، فإن توفيقه إلى ذلك الكشف لم يكن إلا من طريق التعاون والتعاضد . لأن الإبقاء على حياة الفرد أمر عسير لو ترك الفرد إلى نفسه ، هذا إلى أن تقسيم العمل يؤدى إلى الانتفاع بصنوف عدة من الإتقان الذى يصل إليه مختلف الأفراد كل فى المهنة التى يصلح لها ، حتى يصلوا جميعاً إلى حال من الدعة تخفف عنهم كثيراً من القلق الذى يثيره فى نفوسهم عدم الأمن الذى يشعرون به إزاء عوامل البيئة وحادثات الحياة . لهذا يرى أدلر أنه ينبغى أن تنهض الجماعة بتقسيم العمل بروح التعاون والائتلاف حتى يؤدى ذلك حقاً ، إلى نفع الجماعة وخيرها .

وهو لهذا يرى أن من يأبق من مهنته أو من يتهرب من العمل ليس سوى عالة يرقب من القوم أن يؤدوا له ما لا يؤديه لهم ، وأنه كان فى الغالب طفلا ألف أن يدلله أهله .

أما المسألة الثالثة : فهى ميول الفرد الجنسية ، ولا يمكن حل هذه المشكلة حلا منفصلا عن غيرها ، إذ يعتمد توفيق المرء فى القيام بدوره الجنسى ، على توفيقه فى عمله ، وعلى حسن علاقاته بغيره من الناس .

فهذه المسائل الثلاث يتكامل بعضها مع بعض ولا يمكن أن نجد واحدة منها منفصلة عن الأخرى ، فكل منها تلقى ضوءاً على غيرها ، وحل واحدة منها يعين كثيراً على حل الأخرى ، فهى ليست سوى جوانب من حياة الفرد الواحد فى جهاده للبقاء على حياته وحياة بنى جنسه والنهوض بها .

العمل

يرى أدلر أن عمل المرأة مهنة لها من الشرف وجزيل النفع ، ما لأية مهنة أخرى أدى إليها تقسيم العمل فى المجتمع الحديث ، فإن رعايتها لحياة الصغار ، وعونها لهم حتى يصبحوا أعضاء نافعين فى الجماعة ، عمل يسمو على كل تقدير أو مكافأة ، وإذا كانت أوضاع الحضارة تبخس من قيمته ، فإنه ينبغى أن نصل بالناس إلى الإيمان بأن نجاح الأسرة يتوقف تماماً على عمل الأم قدر توقفه على عمل الأب ، وأن يوقنوا أن الدور الذى تلعبه المرأة فى العمل والإنتاج ، لا يقل بأى وجه من الوجوه عن دور الرجل وجهاده .

فالأم هى العامل الأول فى توجيه ميول الطفل المهنية ، ذلك لأن السنوات الأربع أو الخمس الأولى فترة حاسمة فى تحديد السبيل الذى يسلكه المرء فى حياته بعد ذلك . ويقول أدلر إنه أينما استشير فى مسائل التوجيه المهنى ، كان يسأل عن طلائع النشاط فى الحياة ، وعن ميول المرء فى سنيه الأولى . كما أن ذكريات المرء عن تلك المرحلة تبين ما أعد نفسه للقيام به ، وتعين السبيل الذى اختطه من قبل لنفسه من الحياة .

والخطوة التالية تقوم بها المدرسة ، ويرى أدلر أن المدارس اليوم تعنى ، أكثر من ذى قبل ، بإعداد الطفل للحياة . بما تبذله من جهد فى تدريب كفاياته البدنية والعقلية . هذا إلى عنايتها بالمواد الدراسية الأخرى . وهو لا يرى فى هذا بأساً ، لأنه مهما قيل من أن المرء ينسى ما تعلم من لغات أو من علوم نظرية فإن فى ذلك صقلا وتهيئة لكفاياته العقلية . كما أن العناية بمهارته اليدوية والبدنية تزيد ثقته بنفسه وإيمانه بها .

ويتيسر النمو على الطفل لو عرف منذ طفولته ، ما أعد له من مهنة فى مقبل أيامه ، فلو أنا سألنا الطفل عما يود أن يكون ، لأجابنا فى الغالب عن

رغبته ، ومع أن إجابته قد لا تكون واضحة ، إلا أنه إن رغب إلينا أن يكون طياراً ، أو سائقاً لقطار دون أن يعرف لذلك من علة ، وجب علينا أن نتعرف على الدوافع الخفية التى تبعثه على انتقاء ذلك السبيل ، وأن نتلمس غايته من السيطرة ، وكيف يحاول أن يحققها . وقد لا تزودنا إجابته إلا بنوع واحد من المهن ، يبدو له أنه يمثل القوة والسطوة . ومع ذلك نستطيع أن نعينه على تلمس السبل الأخرى ، التى تؤدى به إلى الوصول إلى الغاية التى يرجوها .

ويرى أدلر أن الطفل ينبغى أن يعرف ، فى سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، المهنة التى يعد نفسه لها . فإذا أعوزه الطموح ، لم يعن ذلك ، أن ميوله لم تتجه بعد نحو ناحية خاصة . وإذا كانت تنقصه الشجاعة للتحدث عنها ، كان علينا أن نجهد فى تلمس ما يرغب فيه ، وعونه على إعداد نفسه له . « فمن الخير إذن أن نبكر فى سؤال الأطفال عن مهنهم المقبلة وكثيراً ما ألقيت هذا السؤال فى المدارس حتى أدفع التلاميذ إلى النظر فى تلك المسألة ، وعدم نسيان المشكلة ، أو إخفاء الجواب عنها . وكنت أسألهم كذلك عن سبب انتقائهم لمهنة بعينها ، وكثيراً ما كنت أصل من إجاباتهم إلى تفاصيل كثيرة ، تثبت لى أن تخير المرء لمهنته ، وسيلة لتعرف أسلوب المرء كله فى الحياة ، وأن هذا التخير يبين لنا الطريق الهام لجهاد المرء وكفاحه ولمعايير القيم التى اتخذها فى الحياة . فينبغى أن نترك المرء يقوّم الأمور كما يهوى ، ما دمنا نحن لا نستطيع أن نقرر خير المهن أو أدناها . فإذا أدى المرء عمله فى كفاية ، وقام بما يجب عليه إزاء الآخرين ، كان له من المكانة ما لأى واحد منهم ، وليس عليه من واجب إلا تدريب نفسه للقيام بعمله والقدرة على سد حاجاته ، والتوافق مع غيره فى حدود تقسيم العمل »(١) .

ويقول أدلر إن من الناس من يستطيعون أن يتخيروا العمل الذى يرغبون فيه ، إلا أنهم لا يرضون عن أى عمل يوكل إليهم . إذ أنهم فى الواقع لا يودون

---

(١) Adler : *What life should mean to you* p. 244.

أداء عمل ما ، بل هم يتوقون إلى وسيلة ميسورة للسيطرة والسطوة ، أولئك هم من دللوا فى طفولتهم فتعودوا الأخذ لا العطاء . وهناك من الناس من قد يكون لهم اتجاه خاص نحو العمل الذى أخذوا أنفسهم بالدربة عليه فى الأربع أو الخمس السنوات الأولى من عمرهم ، واستقر فى نفوسهم الولع به ، غير أن ظروفهم الاقتصادية أو رغبات أهليهم ، ألزمتهم البعد عنه ، وهم لهذا دائمو الشوق إليه ، وإن قصر بهم الجهد عن الوصول إليه، لهذا يدعو أدلر ويلح فى الدعوة إلى دراسة ذكريات الطفولة ، حتى نستطيع على ضوئها أن نحسن توجيه الصبيان إلى ما يصلحون له فى الحياة ؛ فلو أن أقدم ما يستطيع أن يذكره الصبى حديثاً تتردد فى أذنيه أصداؤه ، أو ريحاً يذكر عنها حفيفها أو ناقوساً يتردد فى ذهنه رنينه ، لما بعدنا عن جادة الصواب ، إذا هيأنا له السبيل نحو العمل فى الموسيقى فلعله يبدع فى النغم ويلهم فى الأصوات .

ويقول أدلر إن من الدوافع الهامة التى تؤثر على كثير من الناس ، ولع المرء بالتفوق على أعضاء الأسرة التى يعيش فيها ، وخاصة بالتفوق على الأب أو الأم . وهو يرى أن من الخير أن نشجع ذلك الميل ، الذى يؤدى إلى تقدم الناس جيلا بعد جيل ، فيدفع ابن الشرطى إلى الجلوس مجلس القضاء ، وابن الممرض إلى أن يكون طبيباً ، وابن المعلم أن يصبح أستاذاً .

هذا إلى أنه يدعو إلى العناية بالنظر إلى أسلوب الصغار فى لعبهم . فقد تبين منه رغباتهم فى الحياة . فلو أن الطفل جمع الصغار ، وجلس إليهم مجلس المعلم من تلاميذه ، فلعله يود الاشتغال بالتعليم . وإذا توفر على تحطيم العدد وفك الآلات ، فلعل فى ذلك دربة على الهندسة والصناعة . فلنترك الصغار يلعبون ففى ذلك إعداد لأنفسهم ، مثل إعداد الصغيرة نفسها للأمومة . فى رعايتها « لعروستها » وعنايتها بأمرها .

كذلك يرى أدلر أنه كى نجنب المرء الأخطاء التى يرتكبها فى حياته كلها ، ينبغى أن نرى إلى المشاكل أو الميول التى تتصل بميله إلى العمل خلال

طفولته حتى نعينه على إصلاحها أو نرشده إلى السبيل الذى يستطيع أن يفيد فيه منها . فإن تبين من الصغير رغبة عن القيادة ، وميل إلى المراتب الدنيا بين أترابه ، فمن الخير أن نعمل على بث روح التفوق فى نفسه وإلا فشل فى مقبل حياته فى القيام بما يتطلب الرئاسة أو التنظيم ، ورضى أن يكون طول عمره مرؤوساً ينفذ ما يطلب منه فحسب ، دون تطلع إلى تقدم ، أو رغبة فى الابتكار والتجديد . وإذا تبين منه ميل إلى التكاسل أو تجنب للجد ، كان علينا أن نتلمس العلة لذلك وأن نسارع إلى علاجها ، قبل أن تلازمه طوال أيامه ، وتؤدى به إلى فشل محتوم .

ويرى أدلر أن النبوغ شكل رائع من أشكال التعاون مع المجتمع . فالنوابغ هم خير من أدوا للإنسانية ما زادها تحضراً ، وما رفع من ثقافتها ، وأرهف من حسها ، وخفف من جهادها فى سبيل العيش . وإن الكثرة من هؤلاء النوابغ هم من كافحوا فى سبيل التعويض عن قصور عضوى منذ طفولتهم ، ونجحوا فى التغلب عليه ، وما بذلوا من جهد وما كابدوا من عناء يشكر لهم . أرهفوا حواسهم وأعملوا عقولهم ، وأخذوا بالدربة أنفسهم منذ سنيهم الأولى ، حتى ليمكن أن نقول : إن ما هم عليه من فن ، وما لهم من نبوغ ، إنما هو من ابتكارهم ونتاج إبداعهم ، لا هبة جادت بها عليهم الطبيعة دون استحقاق ، ولا ميراثاً أخذوه عن الأسلاف .

كما يرى أنه لا ينبغى تنشئة الصغار على جمع المال ، لا يبتغون من وراء العمل سوى الكسب ، لأنه إذا كان من الحتم على المرء أن يكسب عيشه ، حتى لا يكون عالة على غيره ، فإن من الخطأ أن يولع بالمال فحسب ، لأنه بذلك يفقد روح التعاون مع غيره ، ولا يجرى سوى وراء منفعته الخاصة ، فإذا ابتغى الإنسان الثراء ، واتخذه هدفه الوحيد ، دون رعاية لمصالح غيره ، فما أيسر عليه أن ينحرف نحو السلب والاختلاس .

ومع أن العمل ينبغى أن يكون أحد مقومات حياة الفرد الهامة ، إلا أنه

لا ينبغى أن يتخذ وسيلة للهروب من القيام بالواجبات الأخرى ، أو ذريعة لتجنب الصداقة أو الزواج . ومع أن أوضاع الحياة المعاصرة تدفع بالقوم إلى الجهاد وراء الرزق وتلزم المرء زيادة التوفر على عمله ، إلا أنها لا ينبغى أن تصرف المرء عن السكن إلى زوج والأنس بأصدقاء . ويقول أدلر إن من أبين خصائص العصبيين ، محاولة الواحد منهم تجنب هاتين المسألتين . وإغراقه آناء ليله وأطراف نهاره ، تفكيراً فى عمله وحلماً به فى فراشه ، حتى يتحطم عليه بدنه وتفسد عليه دنياه .

الصداقة

يقول أدلر إن أقدم الميول فى نفس الإنسان ، ميله إلى إقامة الصلات مع غيره من بنى جنسه . وقد اخترع الناس فى جماعاتهم الأولى بعض الرموز العامة التى قصد بها تقوية الوحدة بين الفئة المعينة وضمان التعاون بين أفرادها ، مثل عبادة الحيوان أو الأصنام ، بل إن الزواج نفسه كان أمراً لا يخص فرداً واحداً فحسب بل يتصل بمصلحة الفئة ، ولهذا كان الفرد فيه ملزماً بطاعة القواعد التى رأت الفئة أن لها فى السير عليها مصلحة .

وهو يرى أن أهم الأصول التى وضعتها الأديان جميعاً هى الدعوة إلى رعاية « الغير » ، و « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . لأن ذلك خير ما يعمل على رفه الجماعة ويبعثها إلى التقدم والرقى . كما أنه صدى يردد ما بالنفس الإنسانية من ميل نحو الألفة والتعاضد . وليس أسوأ من امرئ لا يؤثر سوى نفسه ، ولا يرى الآخرين إلا طلاباً لمنفعة يقتنصها منهم ، أو حاجة يقضيها من صلاته بهم ، ذلك لأن التعاون ينبغى أن يؤخذ غاية فى نفسه ، إذ هو سوف يؤدى بعد ذلك إلى خير الأفراد جميعاً ، دون أن يفسده سعى كل منهم إلى نفعه الخاص أو غاياته الفردية .

أما خير السياسة فهى ما تتطلع إلى فائدة الإنسانية عامة ، فمهما اختلفت

الأحزاب وتعددت الشيع ، فليس فى ذلك من ضير ، إذا كان كل منها يتطلع ، بعد العمل على فائدة الجماعة الصغيرة التى يسعى للنهضة بها ، إلى فائدة الناس جميعاً . فالحركات الوطنية ، أو الأحزاب السياسية ، أو حركات الطبقات إذا كانت تبغى ، بعد العمل على تقوية روح التعاضد بين أفرادها ، والسعى فى سبيل خيرهم ، أن تنهض بالجماعة الإنسانية كلها وأن تطبق المبادئ التى يؤمن بها أفرادها على الناس جميعاً ، كانت بركة وخيراً . ولا ينبغى أن نحكم على أى حركة من تلك الحركات بالخير والشر ، إلا على ضوء ما تبعثه من روح التعاون بين أفرادها أولا ، ثم بين الناس كافة .

« أما ما ينبغى مناهضته من مذاهب العيش، فهو السعى وراء المنفعة الخاصة لأن هذا الأسلوب هو أكبر العقبات فى سبيل النهوض بالفرد والمجتمع »[١]. بل إن الأنانية والاعتزال ، كما يقول أدلر ، لتظهران على أكثر وجوههما وضوحاً عند مرضى النفس أو العصابيين . فتصيب منهم القدرة على الحديث ، بالعىّ الذى يلحق ألسنتهم أو بشدة الحياء فى محاضر الناس ، أو بعدم المقدرة الجنسية فليست هذه الأعراض جميعها سوى مظاهر لعجز المرء عن إقامة الصلات ببنى جنسه ، تصدر جميعها عن عوزه إلى الروح الاجتماعية ، وغياب الإيثار عن نفسه .

ويقول أدلر إن أشد درجات الاعتزال تظهر فى المعتوهين . ويرى أن الجنون نفسه يمكن علاجه ، إذا استطاع المرء أن يبعث فى نفس المعتوه روح الألفة والتعاون ، وأن يقرب ما بينه وبين بنى جنسه . لكن التوفيق فى علاج تلك الحالات فن شديد العسر ، يتطلب صبراً ومثابرة وتفاؤلا ، حتى يستطيع المعالج أن يحيى فى نفس المريض ميله إلى الجماعة ويثير فى نفسه الرغبة إليها . ويذكر أدلر أنه استدعى مرة لعلاج فتاة أصيبت « بالعته المبكر »[٢] ولازمها

---

(١) Adler : *What life should mean to you*, p. 254.

(٢) Dementia Praecox.

المس ثمانى سنوات كاملة ، قضت العامين الأخيرين منها فى البيمارستان : كانت تنبح كالكلب ، وتبصق على الناس ، وتعمل فى ملابسها تمزيقاً وتقطيعاً ، وتحاول أكل منديلها وإيذاء كل من يقرب منها . فتبين من سلوكها أنها كانت تنفر من البشر وتحب أن تلعب دور الكلاب ، حتى لكأنها كانت تقول :

عوى «الكلب» فاستأنست «بالكلب» إذ عوى
وصوّت إنسان فكدت أطـــير

فتحدث أدلر إليها مرات متعددة خلال أسبوع كامل فلم تجبه بكلمة واحدة فواصل التحدث إليها فلطمته . ففكر فيما يفعل ، فلم يجد سوى التخلى عن مقاومتها ، مع أنه من الجلى أنها لم تكن قوية البدن أو شديدة البنيان . تركها تضربه وبين لها صداقته ، فخيب بذلك ظنها وحرمها من رغبة العدوان لعدم جدواه فأسقط فى يدها ، وعمدت إلى كسر نافذة الحجرة وأصابت يدها بجروح من زجاجها المحطم ، فلم يؤنبها ، وما كان منه إلا أن ضمد جراحها ، ورأى أن من الخطأ الواضح ما تعوده القوم من مقابلة مثل ذلك العنف من المعتوهين ، بتقييدهم وحبسهم فى إحدى الغرف . ورأى أنه ينبغى أن يلتمس ضرباً آخر من المعاملة يكسب به الفتاة فأخذ يتحدث إليها ، ويظهر لها روح المحبة والعطف فى حديثه . وبعد شهر كامل بدأت توقن أنه يود بها خيراً . فتحدثت حديثاً مضطرباً غامضاً رحب به أدلر وشكره لها ، وزاد صداقة وعطفاً عليها ، وعالجها حتى شفيت . ومر عام والفتاة كاملة الصحة موفورة العافية ، حتى قابلها أدلر يوماً فى طريقه إلى البيمارستان فرافقته إليه ، حيث قابلا الطبيب الذى كان يعالجها من قبل فتركها تتحدث إليه حتى يمر على بعض المرضى . فلما عاد ، رأى الطبيب محنقاً بادى الغيظ ، فأسر إلى أدلر قائلا : « إن هذه الفتاة بادية الصحة غير أن ما يحنقنى هو أنها لا تظهر لى وداً ولا يبين لى منها إلا أشد الحقد » . ذلك لأنها لم تتطامن يوماً

لصحبته ، ولم تؤمن بعطفه . ويختم أدلر قصة الفتاة بأنها بقيت تزوره بين الفينة والفينة ، عشر سنوات متصلات ، استمتعت خلالها بسابغ الصحة . وكانت تعمل لكسب قوتها بنفسها ، وكانت حسنة العلاقات بغيرها ، لم يتطرق الشك يوماً إلى أحد ممن رأوها أنها أصيبت بالعته يوماً أو أضافها البيمارستان عامين كاملين .

ولصاحبنا حديث طريف عن علاج البارانويا والملانخوليا . خرج فيه على الأصول السنية لأطباء الأمراض العقلية . وزعم أن البارانويا تدفع الإنسان إلى إلصاق التهم بالناس جميعاً ، وإلى الظن أنهم يتآمرون ضده ، ويعملون على ملاحقته واضطهاده . كما أن الملانخوليا تعكس الأمر فتدفع المريض إلى اتهام نفسه ، بينما هو فى الحق يتهم غيره فى قرارة نفسه . ويزعم أدلر أنه كان يوفق فى علاج المرضى بهاتين العلتين بإثارة الميل إلى الجماعة فى أنفسهم ، ذلك لأنه كان يعتقد أن السبب الحقيقى فى علة الواحد منهم هو عوزه إلى التعاون ، حتى دفعه ذلك إلى أن يقرر أن المريض إذا استطاع أن يتصل بغيره من الناس وأن يقيم علاقته معهم على قدم المساواة والتعاون كان له فى ذلك شفاء وتقويم .

ويرى أدلر أن روح الإيثار ورعاية الغير تنمو فى المنزل والمدرسة وأن ما يسىء إليها هو الأخطاء التى يرتكبها الناس فى تنشئة الصغار(١) ، وهنا يناقض أدلر نفسه كما عهدنا منه ذلك فيقول : « إنه يحتمل ألا يكون الشعور الاجتماعى غريزة موروثة بل الموروث هو الاستعداد الاجتماعى »(٢) . ويصقل ذلك الاستعداد وينمو إذا استشعر الصغير روح العطف والتعاون فى بيئته . فلو أحس المساواة بينه وبين أفراد الأسرة ، ولمس روح الألفة والصداقة التى ينبغى أن تجمع بين أفرادها وتذوق خير التعاون بين والديه ومعارفهم وجيرانهم ، لنشأ متعاوناً مؤمناً بجدوى الاجتماع والتعاطف . كذلك الأمر فى المدرسة .

---

(١) تفصيل ذلك بالفصل الخاص بالتربية .

(٢) Adler : *What life should mean to you*, p. 261.

فحياة المرء فى المنزل والمدرسة إعداد لأسلوبه فى الحياة كلها ينبغى أن تهيأ لتنشئة المرء على العيش فى المجتمع الكبير والعمل على خيره .

ينبغى على المرء إذن أن يشعر أنه عضو فى الجماعة الإنسانية وأنه حلقة يربط ماضيها بمستقبلها . وعليه أن يستجمع خير ما فى ماضيها وأن يبذل جهده لزيادة رفهها ، وزيادة خيرها ، ما وسعته كفايته وإبداعه حتى يترك الدنيا أفضل حالا مما أقبل عليها ولو يسيراً ، وحتى يسلم التراث الذى اؤتمن عليه كاملا ، بل مزيداً عليه ، ولو قليلا .

الزواج

يرى أدلر « أن الحب وما ينتهى إليه من سكن إلى زوج هو أقوى عاطفة وأعمقها تدفع بالمرء إلى شريك فى الحياة من الجنس الآخر قربته إليه الجاذبية الجنسية ، وحب الصحبة والرغبة فى إنجاب النسل ، ومن السهل أن نرى أن الحب والزواج جانب من التعاون لا يعود بجزيل النفع على اثنين من الناس فحسب بل على الناس أجمعين » . ويتطلب القيام بذلك الجانب من الحياة شعوراً طيباً بمطالب الجماعة هذا إلى أنه يتطلب تعاطفاً وقدرة على فهم موقف شريك المرء فى حياته ، حتى يشعر المرء شعوره ويرى الدنيا من الناحية التى يراها هو .

ونستطيع أن نحكم بصلاحية المرء للزواج إذا كان له من الشجاعة والثقة بنفسه ما يبعثه إلى التوفر على عمله والمهارة فيه . كما يهيئه لمصاحبة الناس وكسب الأصدقاء والمتعة بما يردونه عليه من عطف وصحبة . ذلك إلى أن مسألة العمل اليوم عماد أساسى للزواج ، إذ لا بد من مرتزق يعول الأسرة المقبلة ويهيئ لها ضماناً لضرورات الحياة ومطالبها الكثر .

ويرى أدلر أن الزواج مشكلة تتطلب من الإنسان جهداً كبيراً للتوفيق فى

حلها . ذلك لأن الناس إذا كانوا قد ألفوا أن يعملوا فرادى أو جماعات فإن خبرتهم قليلة بالعمل أزواجاً ، فإذا قسم على اثنين من الناس أن يعيشا معاً وجب أن يؤثر الواحد منهما الآخر على نفسه وأن يعنى بأمره أكثر من عنايته بنفسه ، وأن يسود بينهما روح العطف والمساواة الذى يدفع كلا منهما إلى أن يزيد فى رفه الآخر ورضاه حتى يشعر أن له قدره وقيمته لأن أحداً من الناس لا يطيق أن يوضع موضعاً دون غيره إلا ويثور فى نفسه الحنق لذلك والغضب منه .

وتنشأ البذور الأولى فى النظر إلى الزواج منذ طفولة المرء الأولى إذ يعتمد توفيقه فى الزواج فى مقبل حياته على ما رآه من توفيق أهله فيه وعلى ما أجابوا به عن أسئلته عن الجنس والحب وموقفهم الذى استشعره الطفل منهم عند ذاك . بل إن هوى الجمال وانتقاءه لينشآن من قدر إعجاب الصغير بأمه وأخواته . هذا إلى أن الطفل إذا نفر من أهله فى صدر أيامه ، انتقى بعد ذلك من الأزواج من يخالف الطراز الذى نشأ على النفور منه . فلو أن أم الطفل أساءت إليه وبطشت به أخذ إذا شب يلتمس من النساء من تحنو عليه ، ومن تتميز بلين الجانب ووافر الرفق . وإذا نشأ المرء مدللا شعر أنه مهمل من زوجه وأصبح عاتية جباراً يفرض سطوته على غيره حتى يدفعه إلى العصيان والثورة فيفسد الأمر عليهما جميعاً ويلتمس مخرجاً من هذه الحال إلى حيث يخيل إليه أن هناك امرأة أخرى أو رجلا آخر أكثر عطفاً من زوجه عليه .

وقد يهوى بعض الناس أكثر من اثنين فى وقت واحد ، لأنهم يرون أن الحب قيد يحد من سطوتهم فهم يلتمسون فى حبين تخففا من قيود الحب الواحد وما يلقى عليهم من تبعة ويرون فى التردد بين أعطاف الواحد إلى أعطاف الآخر ما يبقى عليهم قدرهم ويخفف من التبعة الملقاة عليهم . وهناك من الناس من يصورون فى عالم الخيال غراماً مثالياً لا يمكن أن يتحقق فى عالم الواقع يقضون الحياة سعياً وراءه ، ويقضون العمر ترقباً لمجيئه ، فينقضى بهم العمر دون أن

يتحقق لهم ما التمسوه ، حتى يكون لهم فى ذلك ما يبرر قصورهم عن عيش الحياة كما يعيشها الناس جميعاً فيكون لهم فى الخروج عما ألفه الناس ما يزهون به ويظهرون هذا إلى ما تحدثنا عنه ، من قبل ، من العوج الذى ينشأ عليه كثير من الناس فيؤدى بهم إلى البعد عن السبيل القويم فى الحياة وخاصة ما يتعلق فيها بالجنس الآخر وذلك ما أطلق عليه أدلر اسم « الاسترجال » .

ويرى أدلر أنه لا ينبغى التبكير بإيضاح العلاقات الجنسية للصغار ، أو إيضاحها إيضاحاً أكثر من اللازم . هذا إلى أن يقول بعدم الكذب فيما نجيب به عن أسئلتهم وبعدم التهرب منها لأن ذلك قد يؤدى إلى كثير من الأذى لهم . كما أن أدلر ينصح بعدم الكرم فى شرح المسائل الجنسية على الصغار : فلا تجبهم عن أكثر مما يسألون ولا تفض عليهم بشرح ما استعصى عليهم إلا إذا تطلبوا هم هذا الشرح ، لأنه يخالف الرأى المعروف بأن الصغار يفسدون معارف الصغار فيما يتعلق بهذه المسائل . ويرى أن للصغير قدرة على نقد ما يلقى عليه به غيره صغيراً كان أو كبيراً . ويقول إن من الخير أن ينشأ المرء فى هذه الناحية ، ككل نواحى الحياة الأخرى ، معتمداً على نفسه مستقلا يلتمس من أهله أو من غير أهله ما يود معرفته عنها .

ويقول أدلر وأصحابه إن المشكلة المعاصرة فى الزواج ترتد إلى عوز القوم إلى الشجاعة لا للأسباب الاقتصادية فقط بل لصغر عدد أفراد الأسر الحديثة أكثر من ذى قبل مما يزيد فى احتمال تدليل أفرادها تدليلا يسىء إلى حسن استعدادهم للزواج وينقص من مقدار شجاعتهم لمواجهة المسئوليات التى يتطلبها .

ثم إن الكفاح فى سبيل الظهور قد ازداد حدة فاندفع النساء إلى المطالبة بما حرمن منه من مساواة مع الرجل ومن حقوق هضمها لهن حتى أدى الأمر بالمرأة إلى السعى لما فوق التعويض عن خنوعها خلال العصور السوالف .

ومن الطريف أن أدلر اقترح علاجاً لمشكلة الزواج فى العصر الحاضر افتتاح مدارس لتعليم الزواج ، قدّم لضرورة إنشائها بجانب ما قدمنا ، ودعا فيها

إلى أن اختلاف وظيفة المرأة عن الرجل فى الحياة ، لا ينبغى أن يؤدى إلى عدم المساواة بينهما فى الحقوق ، واقترح منهجاً دراسياً طريفاً للحب والزواج فصله فيما يأتى :

فى رياض الأطفال : الرقص — دراسة فى التعاون .
الألعاب الجمعية — دربة لمن يحبون فى المستقبل .

فى المدرسة الأولية : الدروس الأولى فى الحب للأطفال .

دروس إضافية للكبار : الدروس الأولى عن الجنس للآباء .

فى المدرسة الثانوية : علم صحة الجنس — فسيولوچية الجنس .
سيكلوچية الجنس — الأساس البدنى للجنس .

فى الجامعة : الوظيفة الاجتماعية للزواج — الوظيفة الاقتصادية للزواج — الوظيفة البيولوچية للزواج — التدريب المهنى والزواج — التدبير المنزلى والزواج .

الدراسة العالية بعد الجامعة : منطق الزواج بواحد — الحب كواجب على اثنين. آداب اللياقة فى الزواج — المساواة بين الجنسين والفرق بينهما — أخطار الحب ومزالقه — الهرب من التبعة الجنسية — الاسترجال فى الحضارة الحديثة — الأنانية فى الحب والزواج — الحب اللاجتماعى . نقص دون جوان — خيبة كازانوفا — الزواج المنشأ تنشئة اجتماعية — الموافقة بين الغريزة والمجتمع .

وختم مقاله[1] الذى عرض فيه لذلك بقوله: « لست أشك فى أن الحب سوف يلعب دوراً كبيراً فى مدارس المستقبل . فلن يكمل أى نظام للتربية إلا إذا هيأ ما يلزم للتقدم الاجتماعى من فن الحب وعلمه وعمله » .

---

(١) مقال لأدلر بعنوان : Wanted : A Training School for Marriage فى مجلة *The Psychologist*, May 1938.

الفصل الثانى

التربيـــة

يرى أصحاب السيكلوچية الفردية أن خير ما يبين أهمية الموقف الذى يتخذه الطفل إزاء الحياة فى تكوين شخصيته وتعيين نصيبه فى مقبل أيامه هو حياة الفاشلين فيها والمنبوذين من المجتمع ؛ أولئك الذين أعيتهم الحيل عن الاتساق مع نظم العالم ومن قصروا عن القيام بما تتطلبه منهم الحياة من تكاليف وواجبات فانزلقت بهم أيامهم نحو الجريمة أو الجنون أو الأمراض العصبية . ومن ثم يتبين لنا فى جلاء ما للتربية من أهمية كبرى لأنها وحدها ، كما يقولون ، الوسيلة التى تدفع الطفل إلى انتقاء الموقف الذى يتخذه إزاء مشاكل العيش، بل إنها العامل الذى يعين له ، فى الواقع ، ذلك الموقف .

ولايقدر كثير من الناس جدوى التربية حق قدرها . بل إن بين المربين أنفسهم كثيرين ممن لا يؤمنون بمالها من نفع وأثر ، فهم إن كانوا يسلمون أن طرائقها يمكن أن تصلح جانباً من النقائص والأخطاء التى يقال إنها فطرية فى الطفل ، إلا أنهم ينكرون أن التربية يمكن أن تقوم بدور كبير فى توجيه الصغار ، ويؤيدون رأيهم بالقول بأن فردية الطفل تنمو وتتحدد منذ وقت مبكر وأنها تقاوم التربية مقاومة تبلغ من الشدة حدًّا لا يمكن أن تجدى معه طرائق العقاب والثواب المألوفة فتيلا .

ويرى أصحابنا أن ذلك الشك فى جدوى التربية قد نشأ من خطأ كبير عن الموعد الذى يمكن أخذ الطفل فيه بالتهذيب ، أى عدم البدء فيه ، إلا إذا نضج إدراك الصغير مع أنه ينبغى الشروع فى تربية الطفل منذ الأيام الأولى من حياته : يوم يطلب الغذاء فننظم له تناوله ، ويوم يصرخ فنحسن التصرف

إزاء هذا العويل . هم يرون إذن أن التربية هى أهم العوامل التى تكون نفسية الفرد وتقيم شخصيته ، لأنها تعينه على تحديد موقفه إزاء القصور العضوى والمركز الاجتماعى والأسرة والجنس . وهم لهذا يعرضون لأصولها و يتحدثون عن طرائقها حديثاً مشوقاً مفصلا سوف نحاول أن نوجزه فيما يلى :

هم يناهضون مبدأ السلطة والسطوة فى التربية مناهضة قوية شديدة و يرون أن الآباء قد درجوا من قديم العصور على الاستمتاع بشعور القوة على حساب أطفالهم ، ينظرون إليهم كأنهم متاع شخصى يتصرفون فيه كما يشاءون و يشكلون الواحد منهم تبعاً لما يرغبون ، لا يدركون من التبعة التى تلقيها الإنسانية على عواتقهم ، إلا أن أولئك الصغار ليسوا سوى ميدان يشبعون فيه رغبتهم فى الزهو والطموح وميلهم إلى التفوق والكمال ، فكم من أم تعامل وليدها كأنه فى الواقع « فلذة من كبدها » يعلوها الخجل من أخطائه كأنها هى التى اقترفتها ، و يشيع فى محياها الرضا لما يحسن القيام به كأنها هى التى أبدعت ذلك الحسن الطريف . حتى إنك لتجد الناس يتحدثون عن أولادهم ، وكأن الواحد منهم يقول ، دون مجاز : « ذلك عضدى أو قرة عينى » ، فهو عنده فى الصميم بضعة من نفسه أو جانب من ماله .

ولا يصدر ذلك الموقف عن العاطفة الوالدية التى تبعث على الحب فحسب ، بل هو فى الجانب الأكبر منه ، قائم على مبدأ التسلط الذى تسير عليه تربية الصغار والذى يقول إن الطفل ليس سوى مخلوق عاص تملؤه الأنانية والثورة على كافة الأوضاع منذ مولده ، ينبغى استئناسه والإمساك بزمامه بين حدود المجتمع الذى قدر عليه أن يعيش فيه . . حذو ذلك المذهب فى تربية الصغار حذو القوم فى ترويض الكلب : يمنحونه العظمة إذا اهتدى وأطاع و يلهبونه بالسوط إذا عصى أو اعوج أمره ، فيقوم سلوكه على الانعكاس الشرطى الذى يربط بين الطاعة واللذة و بين العصيان والألم : إذا شاعت فيه رغبة الثورة أوقفتها خشية الألم بينا يدفعه إلى الطاعة و يحببه فيها شوقه إلى الثواب وتطلعه إلى اللذة .

غير أن صغير الإنسان ليس كلباً ، فإذا كان من اللازم أن تتخذ تلك الوسيلة لترويض الكلب على العيش بين جماعة الناس ، وإذا كان من المألوف نجاحها مع الكلب لما توارثه جيل بعد جيل من أسلافه الصالحين للعيش بين بنى آدم ، فإن هناك بوناً شاسعاً بين الطفل والكلب — ذلك أن حب العيش مع الغير والرغبة فى التوافق والاتساق مع المجتمع ميل فطرى فى نفس الصغير قد يتأخر عن الظهور فى سنى الحياة الأولى لما يشعر به الطفل من عجز عن التوافق مع غيره ، لكنه مع ذلك ميل شديد كامن فى نفسه بل هو من أقوى عمد حياته وأهم مقوماتها . فوظيفة التربية إذن « هى التعجيل بتخفف المرء من شعوره بالنشوز عن المجتمع حتى ينمو ميله الاجتماعى نمواً لا توقف فيه . فإذا وفّقت التربية فى ذلك ، ارتقى الميل الاجتماعى ، ونما نماء تلقائياً ، لا نحو التوافق والصحبة والنظام فحسب ، بل نحو التفكير الموضوعى والاستقلال والشعور بالتبعة والشجاعة والميل إلى العمل كذلك »(١).

فليست الطاعة إذن خير ما ينشأ عليه الإنسان فإذا أفلحت طريقة الترويض والاستئناس مع الكلاب ، فذلك لأن الطاعة هى خير ما يجدى على الكلب مع بنى آدم ، غير أنها مؤذية فى تربية الناس ، لأنها تزيد شعور الصغير بنشوزه عن غيره وتضعف أمله فى إقرار كرامته فى وجه السيطرة والطغيان ، وإذا آمن الطفل بعدالة أصولها فسرعان ما يطبقها حالما يولد له أخوة يسيطر هو عليهم بدوره ، فإذا بدا منهم عصيان أبلغ الأمر للكبار حتى يشبع نفسه بالعقاب الذى سوف ينزل بهم . ويتابعه ذلك الموقف فى المدرسة حيث يتميز سلوكه بالدقة فى تنفيذ الأوامر والمسارعة إلى تقبل التعاليم التى تلقى عليه حتى ينال من رضا المشرفين ما يصل به إلى مركز العريف يسيطر فيه على غيره من الصغار ويمتع بما يخلعه ذلك المنصب على صاحبه من قوة منح الثواب أو التبليغ عن عن المذنبين وإنزال العقاب .

---

(١) Wexberg : *Individual Psychology*, p. 246.

لهذا كان خير « الموظفين » — أولئك الذين يخنعون لعنت الرؤساء ويلزمون بالغ الحزم مع المرءوسين — هم الذين ينشأون على ذلك الضرب من التربية والتعليم . لكن الحق أن أولئك القوم منذ طفولتهم لم يكونوا يعملون حبًّا فى العمل أو رغبة فيه ، ولم يكن الواحد منهم يتكمل حبًّا فى الكمال بل كان يجاهد للحصول على رضا الأهل والمعلمين . تعوز كل منهم القدرة على الإبداع وينقصه الباعث على التجديد والابتكار ، فإذا شب لم يكن سوى أداة أو آلة لا يعمل ويطيع سوى زلفى للكبير وتحقير للصغير . وليس فى الدنيا من باعث أكثر خسة وأشد مهانة من ذلك .

ومع هذا كله فإن التربية التى تقوم على التسلط والسيطرة ، كثيراً ما تلقى فشلا ذريعاً ، لأنه إذا كان كبار الأطفال فى الأسرة أميل إلى المحافظة فى أغلب الأحيان ، فصغارها أميل إلى العصيان والثورة ، شعارهم المعارضة مهما كلفتهم من ثمن : يكفى أن يرغب الوالد أو الأخ فى أمر ما ، حتى ينبعث فى نفس الصغير عناد شديد اتخذه هادياً له وديدناً يبقى به على كرامته وعلى شعوره بعزة نفسه . هذا إلى مختلف الأشكال التى قد يؤدى إليها ذلك الموقف كالخيبة فى التعليم أو الكذب أو الخيانة ، باعتبار ذلك كله وسيلة من وسائل الاحتجاج والعصيان .

ويعرض أصحاب أدلر ، عند الحديث عن السيطرة والسطوة فى التربية ، للتربية الدينية — وهم يقررون أول الأمر أن الحديث عنها لا يعنى فى كثير أو قليل أى تعرض أو نقاش فى صحة العقائد الدينية أو بطلانها . وإنما يقولون إن الدين لا يمكن أن يلقن للصغار ، إذ لا تكون أقاصيصه لديهم سوى لون من أقاصيص الجنّ ، ولايفهمون من أصوله إلا أنها واجب ثقيل يطلب إليهم حفظه عن ظهر القلب ، وليس الله كما يقدم إليهم سوى تميمة من تمائم المتوحشين . فما من صغير يستطيع أن يدرك لبّ الدين الروحى . ومن الخير إذا أراد المرء أن ينشىء صغاره تنشئه دينية ، ألا يذكر أمامهم أصوله قبل أن يبلغوا

الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر ، فلعلهم حينذاك يتقبلونها عن فهم وعن إدراك . أما التربية الدينية على شكلها الحاضر فليست سوى وسيلة لغرض السيطرة فى المنزل والمدرسة ، تصطنع لتخويف الطفل من الإثم وتملأ نفس الصغير خشية وقلقاً مقيما من الوقوع فيه . حتى ليمكن أن يقال إن كل ما ينتج عنها إن هو إلا وقف شعور الطفل بقدر نفسه وقيمتها ، عن النماء الطلق السليم .

ثم يرى أصحابنا أن العقوبة البدنية جريمة شنيعة تأذن بارتكابها أوضاع الحضارة المعاصرة ؛ إذ أن القوانين ما زالت تسمح ، فى أمريكا وأوربا ، للآباء والمعلمين بضرب الأطفال . وهم يجرحون تلك التقاليد تجريحاً شديداً قائلين أن ليس هناك من أمر أكثر هدراً لكرامة الصغير من العقوبة البدنية .

ويعترف أدلر وأصحابه بما قد يكون فى حديثهم عن السطوة فى التربية من إسراف فى النقد ، وبما يمكن أن تجرح به حجتهم لاعتمادهم على النظر إلى الحالات الشاذة المتطرفة ، وهم يسلمون بجانب من الخير قد ينتج عن ذلك اللون من التربية إذا لم تزد عوامل البيئة فى سوءاتها ويقولون إن أذاها قد يهون إذا أشربت من ناحية الكبار العطف وروح الصداقة .

فإذا عرضوا للطرف الآخر فى التربية الذى يقوم على المحبة والإسراف فى العطف ، رأوا فيها ما يؤدى إلى إنتاج الطفل المدلل الذى قد يصل طغيانه من العنف حداً يتضاءل أمامه طغيان المعوج الثائر . فالمدلل الصغير يفرض إرادته على أبويه فرضاً ويلجأ فى نشر سلطانه إلى كافة الوسائل التى تنفعه فى تحقيق ذلك من الصراخ والعويل الدائم وشدة الغضب والإضراب عن الطعام ، إلى التحطيم والعصيان والخيبة فى المدرسة . وهو يصطنع ذلك كله للحصول على على ما يريد ولاستثارة العطف والرعاية من والديه كى يشعر بقدرته عليهما . ولا ينتج التدليل إلا قوماً لا يعولون على أنفسهم فى شىء يتميزون بالأنانية والسطوة ، وهم يصطنعون الاستكانة والضعف سلاحاً لإلزام الآخرين بالقيام بخدمتهم ، ولا ينظرون إلى الجد وإتقان العمل والقيام بالواجب إلا كما ينظر الثعلب إلى

الكرم العالى ، فإذا خاب فى الوصول إليه ولى عنه مدعياً أنه لا يشتهى العنب لحموضته . هم متشائمون متواكلون تواجههم العقبات وتكثر أمامهم الصعاب إذا انفصلوا عن أسرهم ؛ فكثيراً ما يخيب الرجل منهم فى عمله وكثيراً ما تخيب المرأة فى حياتها الزوجية ، لأن كلا منهما يود التخف من تبعاته ولا يستطيع أن يؤدى ما يطلب منه فى حياته الجديدة لأن دنياه كانت من قبل عالماً يخدمه فيه الجميع ، بينما هو الآن مسئول عن أداء جانب من النشاط فيه إنتاج وإيجاب وبذل وجهد لم يأخذه أحد به من قبل .

وتعرض السيكلوچية الفردية أيضاً للطموح الكبير والقصور العوالى التى يقيمها المربّون فى ذهن الصغير . وينقد أدلر ذلك الأسلوب فى التربية ويرى أنه لا يقوم إلا على زهو الآباء . وأن تلك الآمال التى يعلقونها على صغيرهم لا تمتّ إلى هذا الصغير بصلة ولا تستجيب لرغباته ولا تنبع من نزعاته أو ميوله ، إن هى إلا أثقال ينوء بها الطفل بينا يتخفف الآباء من تعطشهم إليها ، عن طريقه . هذا إلى أن إفعام الطفل بها يدفعه إلى بذل الجهد الكبير الجبار لتحقيقها فلا يترك الطموح له دقيقة يلهو فيها أو يلعب . ولا يستطيع فى حياته أن يطيق مرة تلاحقه الخيبة فيها فيفسد عليه أمره وتتحطم ثقته بنفسه كما تخيب أمانى أهله فيه . ولو أن الطموح بلغ به الغاية وواتاه معه التوفيق بعد ما بذل من جهد ومثابرة لم يكن له من هذا كله ما يجلب إلى نفسه الرضا أو الهناء ، إذ أن نفس الطامح الظمآن تبقى على الدوام عطشى للمجد والنصر كارهة لتوفيق غيره من الناس حاسدة لما يصيبون من نجح أو ما يصادفون من خير .

تلك كلها صنوف من التربية الخاطئة التى لا ينتج عنها ، كما يرون ، سوى شخصيات مضطربة تبعد بالمرء عن الحياة السوية المستقيمة ، لا يمكن أن يصلح شكل منها أخطاء الشكل الآخر بل يزيدها سوءاً ويضاعف آثارها السيئة تعقيداً . فهم لهذا ينقدون الرأى الشائع المعروف الذى يقول بأن لين أحد

الوالدين يمكن أن يلطف قسوة الآخر ؛ فما أكثر مفسدة للصغير من أب حازم وأم حانية عطوف ، يهرب الطفل من عنف أبيه إلى صدر أمه تخفف عنه ما يلقاه من عنت وتعينه على حل كل معضلة أو مشكل ، فلا يخرج منه سوى رجل ضعيف الحيلة قليل الحول ، بل كثيراً ما يلجأ الصغير إلى استغلال ذلك الموقف لما يعرفه من تباين المبادئ التى يسير عليها الولدان فيلجأ إلى أمه ضد أبيه حتى يخفى جبنه عن مواجهته ويرضى ميله للسيطرة والظهور .

ثم يعرض مذهبهم لكثير من التفاصيل الدقيقة فى حياة المرء وخاصة فى طفولته بل فيما قبل طفولته ، ذلك لأنهم يرون أن تكوين الوالداين السيكلوچى إن هو إلا مقدمة نستطيع أن نتعرف بها على المؤثرات التى سوف تعمل على تنشئة الطفل ، فالفتاة التى لا ترضى عن جنسها ولا تحس بين جنباتها باعثاً صحيحاً لتحمل الواجب الملقى عليها كامرأة لن تصلح بعد أما . وهى إن أرغمت على ذلك لم يكن فى سلوكها إزاء صغارها سوى ما يبعث فيهم العوج ويزيد فى الأمر سوءاً وتعقيداً . والحديث عن هذا وعن مثله يطول ، فمن الخير أن نبدأ بذكر رأيهم عن الطفل نفسه وعن أثر الأسرة فى تربيته وتكوين نفسيته .

من الطبيعى أن يكون لكل طفل مركز خاص فى الأسرة يختلف عن مركز أى طفل آخر اختلافاً كبيراً واضحاً ، ولو أنه من المألوف ألا يؤمن القوم بتلك الحقيقة . هذا إلى أن الوالدين فى الواقع لا يستطيعان ألبتة أن يعاملا طفلين اثنين معاملة واحدة متناسقة فلعل فى عطفهما على الصغار تفاوتاً ، بل من الحتم أن يكون فى آرائهما عنهما خلف وتباين . لهذا كله يعنى أصحاب السيكلوچية الفردية بتفصيل الظروف التى توجه الصغير فى محيط الأسرة وما تتركه من أثر باق فى بعث الشعور بالقصور فى نفسه ، ومن ثم فى تحديد سلوكه وأسلوب حياته كلها فيما بعد .

وهم ، قبل ، يتحدثون عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية للأسرة وعن أثرها فى نفوس الصغار ، فيقررون أن التربية لا تستطيع ، إلا إلى حد محدود ،

إصلاح الأذى الذى ينشأ عن قسوة تلك الظروف أو فسادها (١) ويجأرون بالشكوى من النظم الاقتصادية التى يسير عليها العالم الحديث ؛ قائلين إن الجماعة مسئولة مسئولية تامة عن علاج العلل ولأم الجراح التى تتركها تلك النظم فى نفوس النشء ، وهم لذلك ينادون بأن من حق الفرد أن تهيىء له الجماعة منذ مولده فرصة مساوية لفرصة غيره ، يستطيع فى ثناياها أن ينمو نمواً بدنياً وعقلياً لا تفسده عليه شرور المجتمع الحاضر وأوضاعه ، ومن الواضح أى أدلر يقرب هنا قرباً شديداً مما تدعو إليه الاشتراكية وتنادى به .

ثم يعرضون لترتيب الأطفال فى الأسرة وطرائق تجنب الأخطاء التى تنشأ عنه وعن أثر ذلك فى بعث الشعور بالقصور ، ومن ثم فى تحديد سلوك المرء فى حياته كلها ، وهم يتحدثون عن ذلك كله فى إطناب كبير ، يفعمونه بما عهدنا فيهم من تفصيل واستشهاد كثير ؛ فيرون أن الابن الوحيد لا ينبغى أن يبقى وحيداً ، فإذا لجأ الوالدان إلى ذلك خوفاً من ثقل التبعات الاقتصادية فكأنهم بخوفهم من تحمل التبعة التى سوف يلقيها عليهم من لم يولد ، يرتكبون إثماً فى حق من أقبل على الدنيا فعلا . إذ أن من أشد الأمور عسراً تربية الطفل الوحيد ، هذا إلى الوحدة التى تفسد عليه أمره وتبعده عن العيش مع أترابه ، ومع هذا فإذا قسم للاسرة طفل وحيد لزم أن يتجنب الأهل تدليله بتربيته تربية يعتمد فيها على نفسه ، وبالتبكير فى الجمع بينه وبين لداته تبكيراً يهيىء له العيش مع غيره وتحمل اليسر والعسر واستقبال الخبرة التى يتطلبها ذلك العيش .

أما الطفل الأكبر فمن الطبيعى أن يبقى وحيداً زمناً ما ، وأن يكثر ، تبعاً لهذا ، تدليله لمدة معينة لأنه يبقى مركزاً لرعاية أهله ، وموضوعاً لوافر عنايتهم ، لهذا ينبغى إعداده للتجربة الثقيلة التى سوف تنزل به حين يولد فى الأسرة أخ أصغر منه ، فإذا بالوليد قد جذب إليه الأنظار واحتكر العناية وقبض أمه إليه .

---

(١) نسترعى النظر هنا أيضاً إلى ما فى ذلك من مناقضة لما ذكر عن أثر التربية فى مطلع هذا الفصل .

تتوفر وقتها جميعه على رعايته ، وإذا بصاحبنا الكبير مروع مأخوذ لسلب أمه منه، لا يدرك أنه أخذ دوره فى ذلك من قبل وأن رعاية الأهل لأخيه لا تعنى انتهاء عطفهم عليه ، وإذا الغيرة تأكل قلبه وتقض عليه أيامه ولياليه . لهذا ينبغى أن يعد الطفل الأول لاستقبال الوليد المقبل ، وأن يوقن أن لابد للإبقاء عليه من الانتباه له والعناية به بعد أن أخذ هو نصيبه من ذلك ، وأنه ينبغى على الكبير أن يتحمل جانباً من تبعات الأسرة نحو الصغير ، ففى ذلك ما يبعث الرضا فى النفس ويزيد من زهو الطفل واعتزازه بشأن نفسه . كما أن فى ذلك ما يمنع جبروت الكبير بالصغير ويحد من سطوته عليه ، ولا يشجع تدليل الأهل للصغير ، ذلك لأن للأطفال مهارة عجيبة فى تربية الأطفال لانهم يفهمون مشاكل من يصغرونهم ويتوقون إلى إسداء العون المستطاع لهم ، بل لعلهم فى ذلك يفوقون الكبار حذقاً ولباقة أحياناً كثيرة .

يتكرر ذلك الموقف بين الصغير ومن يليه ، فإذا لم يهيأ الجو بينهما تهيئة صالحة يتعاون فيها الأهل جميعاً ويعملون لذلك ما وسعهم العدل والحيلة . كان العراك بين الصغيرين عنيفاً حاداً . يبقى فى نفس كل منهما من آثاره ما يلازمه طوال حياته ، وما يعين كثيراً من أوجه نشاطه وسلوكه فيما بعد .

ويفصل أدلر أثر الأسرة فى تكوين سلوك الفرد تفصيلا مطولا يفعمه بالأمثلة كما عهدنا فيه ، وهو ينحرف فى الغالب إلى تعميم الحالات الخاصة لبعض الأطفال على الصغار جميعاً . كأن يقول إن كل طفل يفضل أباه ويلتصق به ، لا بد أن يكون قد اتخذ ذلك الموقف نكاية بأمه حين بدأت توجه عنايتها إلى إخوته الصغار ؛ كما يذكر أن الطفل إذا خاب فى اجتذاب أنظار أحد من أهله لجأ إلى العزلة وفقد الأمل ، لهذا نجد أن أكبر الأطفال فى الأسرة يعيشون فى الغالب طول حياتهم على ذكر الماضى وهم مولعون بالتحدث عن الأيام الخوالى وهم يكرهون المستقبل ويخشونه كما أنهم على الدوام أكثر تشاؤماً فى الحياة من غيرهم. والمرء منهم فى حياته العملية يود لو يفرض سيطرته وسلطانه على من يحيطون به ،

وهو يدعو إلى احترام القوة والقانون، مولع بالمحافظة ، دائم الظنة بالغير ، كثيراً ما يخيل إليه أن الدسائس تحاك حوله لخلعه من منصبه .

أما الطفل الثانى فهو أحسن حالا إذا لم يسرف أخوه الأكبر فى الاستبداد به ، وهو يتميز برغبته الملحة فى اللحاق بغيره والتفوق عليهم . وفى التوراة قصة رائعة تمثل العلاقة بين الولد الأول والثانى ، وكيف انتهى التنافس بينهما إلى سبق « يعقوب » وفوزه بعطف أبيه حتى ضاق أخوه الأكبر « عيسو » ذرعاً بذلك وتنازل عن حقوقه كلها تخففاً من الضيق الذى أزهق أنفاسه .

ولا يظهر الفرق بين هذين الطرازين من الناس فى حياة الصحو فحسب ، بل هو كثير الورود فى أحلام كليهما ، فالبكور فى صغرهم وفى كبرهم غالباً ما يحلمون بالسقوط من شاهق ، بينا يحلم من يتبعونهم بأنهم فى حلبة السباق أو أنهم يعدون وراء القطار أو يلاحقون الترام ، حتى ليكفى أن تسمع حلم أحد الناس عن العجلة والإسراع لتعرف أنه طفل ثان .

أما الطفل الأصغر فى الأسرة فيبقى فى الغالب على عرشه لا ينازعه فيه أحد يمتع فيه بنصيب كامل غير منقوص ولا منتهب من الرعاية والتدليل . ومع هذا فكثيراً ما يبز الجميع لأن كثرة إخوته تبعثه على وجوه كثيرة من المنافسة تعينه على النضح والجد . ويكفى أن نذكر قصة « يوسف » مثلا لذلك .

يخرج أدلر من هذا إلى أن مركز الفرد فى الأسرة يلعب دوراً كبيراً فى تحديد نفسيته ويقول : « إننى حيثما قمت بدراسة البالغين وجدت أن الطفولة الأولى خلفت فيهم آثاراً عميقة لازمتهم طوال الحياة . ذلك لأن مركز الفرد فى الأسرة يترك طابعاً بارزاً على أسلوب الحياة . كما تنشأ كل المصاعب التى تعوق النمو من شدة المنافسة وقلة التعاون فى ذلك المحيط »(١) .

ثم يرى أدلر أن دخول الطفل المدرسة نوع من المواقف الجديدة التى يختبر فيها أسلوب حياة الفرد ومبلغ استعداده لاستقبال ما تواتيه به الحياة من جديد ،

---

(١) Adler : *What life should mean to you*, p. 154.

فمن الخير ، لو أننا أردنا أن نحسن توجيهه فى مختلف مراحل الدراسة بل فى حياته العاملة كلها ، أن نبكر بتقييد ما يبدر منه منذ نعومة أظفاره فى سجل تقوم بتحريره روضة لأطفال والمدرسة الابتدائية تبعاً لما يصدر عن الصغير من ميول أو نقائص ، وحبذا لو قامت الأسرة بما يجب عليها فى تلك الناحية .

وهو يرى أن الانتباه للدرس يعتمد إلى حد كبير على شغف الطفل بمعلمه ، إذ أنه من فن المعلم أن يجتذب انتباه التلميذ وأن يعرف إن كان حاضر الذهن أو غائبه . ومع هذا فهناك فئة من الصغار تأتى إلى المدرسة وقد تركت أذهانها خارج أسوارها ، تلك هى الفئة المدللة ، لن ينفع معها نقد أو تأنيب إلا أن يزيدها نفوراً من التعليم ويبعث فى نفوس أفرادها اليأس من القدرة عليه والتشاؤم من الحياة جميعها . وليس من أحد أقل من الطفل المدلل صلاحية للحياة المدرسية لأنها تتطلب من الصغير تعاوناً وتضامناً وروحاً جمعيه سمحة تتقبل النقد والإصلاح وتتحمل التبعة ، وتعمل على إصلاح الخطأ ، أى كل الخلال التى تنبت من المنزل والتى تنتج عن روح الأسرة فى تنشئة صغارها .

ويعرض أدلر لمقاييس الذكاء ولذيوعها فى المدارس الحديثة ويرى أنها جزيلة النفع للمعلمين ، وخاصة عند ما تكشف لهم فى التلاميذ عن أمور تخفى عليهم بالاختبارات العادية . كما أنها قد تكون منقذاً للطفل حين تسوء التقارير عنه ويود الأساتذة النزول به عن فرقته فتزكيه نتيجة اختبار ذكائه ، فإذا وضع بين طبقة ممتازة من التلاميذ شعر بالنجاح وصلح حاله . ويرى أدلر أن تبقى نسبة ذكاء التلميذ سراً لا يصل إليه والداه ولا الطفل نفسه ، إذ هم لا يعرفون القيمة الحقيقية لها ، ويرون فيها ما يعيّن قدر الطفل . لأن أدلر ولو أنه لا يود أن يحط من شأن مقاييس الذكاء إلا أنه لا يرى أنها المفتاح الوحيد لحياة المرء فيما بعد ، فقد تسوء حال الذكى وتسعد أيام الغبى إذا اختلفت صروف الدنيا مع هذا عن ذاك . ثم يقول أدلر إنه رأى بالتجربة أنه إذا أثبت الاختبار نقصاً شديداً فى الذكاء أمكن تحسين النتيجة إذا وصلنا إلى الطريقة الصحيحة لقياسه ، وإحدى هذه

الطرق تدريب الطفل على المقياس الواحد حتى يصل إلى ما فيه من حيل وكى يحصل على الإعداد اللازم للقيام بمثله، وبذلك يتقدم الطفل وتزيد خبرته فيحصل على خير من نتيجته الأولى فى الاختبارات التالية (١) .

ويناقش أدلر المنهج المدرسى ومقدار ثقله على الأطفال فلا يرى أن من الخير إقلال المواد الدراسية ، بل يدعو إلى تعليمها على منوال متناسق يستطيع الطفل به أن يدرك الغاية والقيمة العملية من هذه الدراسة ، حتى لا ينظر إليها نظره إلى الأمور المجردة النظرية . كأن تعلم الرياضة — الحساب والهندسة — بالاستعانة بمثل محسوس كالإشارة إلى طراز بناء وهندسته والنسب بين أجزائه وعدد السكان الذين يعيشون فيه « وفى بعض المدارس الحديثة خبراء مهرة يعرفون كيف يعلمون مواد الدراسة متصلة بعضها ببعض، فيخرجون للنزهة مع الصغار يلتمسون فيها ما هم به مولعون ويعرفون كيف يربطون المعارف بعضها إلى بعض كأن يربطوا المعلومات عن النبات بتاريخ النبات ومناخ البلد إلخ . . . وعلى هذا المنوال لا يستثيرون فحسب شغف الطفل بأمور قد لا تسترعى انتباهه دون ذلك ، بل يهيئون له معرفة متناسقة تأليفية للأمور هى الغاية الأخيرة من كل تربية » (٢) .

ويعرض أدلر للمنافسة الفردية بين الأطفال فيقول إن الفصل فى المدرسة ينبغى أن يكون مجموعة يشعر فيها الطفل بأنه جزء من وحدة متضامنة ، لهذا يجب على المعلم أن ينظم التسابق والطموح فى حدود ذلك الوضع ، فالمنافسة الفردية تسىء إلى الروح الجمعية ، زيادة على الأذى الذى يلحق تكوين الطفل منها ؛ ذلك لأن الصغار يكرهون أن يروا أترابهم ، وقد خلفوهم وراءهم بمراحل ، فإما أن تتقطع نياطهم للحاق بهم ، أو يعانوا السقوط فى اليأس والانقباض على أنفسهم . لهذا كان توجيه المعلم وإرشاده كبير الأهمية فى نقل نشاط الطفل من ميادين المنافسة

---

(١) لكن ذلك الرأى يخالف أصول القياس . Adler : *The Education of children*, 171.

(٢) ومن الواضح أن أدلر يقصد بذلك ما يعرف عند أصحاب التربية بطريقة المشروع .
Adler : *Education of Children*, p. 173.

الفردية إلى وجوه التعاون والتعاضد بين الجماعة الواحدة ، وفى العناية بإقامة المنافسة بين تلك الجماعات لا بين الأفراد .

ويرى أدلر أن من الخير اصطناع طريقة الحكم الذاتى فى الفصول ولا ينصح بالتريث فى ذلك انتظاراً لنضج الصغار ، بل يرى أن من الخير إعدادهم لذلك إعداداً تدريجيًّا ، حتى يحذقوا التصرف فى مسائل الثواب والعقاب ، وحتى تستقيم نفوسهم فينشأوا على التفرقة بين الرئاسة والحكم ، وبين السيطرة والمصلحة الشخصية .

وينقد أدلر فكرة الوراثة والأخذ بها فى التربية . ويرى أنها ليست سوى ذريعة للقوم يهربون بها من التبعة الملقاة على عاتق كل منهم : فلا يمكن لأى من المربين أن يؤمن بجدوى عمله مع إيمانه بالوراثة . ومع أن أدلر يسلم بالوراثة العضوية وبوراثة الكفايات العضوية ، إلا أنه يرى أن الأهمية التى تعلقها النفس عليها تختلف من جيل إلى جيل تبعاً للجو الذى يعيش فيه الفرد فى الأسرة والمجتمع ، ويرى أننا ننسب إلى الوراثة كثيراً مما يرجع إلى التقاليد التى تسيطر على المنزل ، لهذا ينبغى العمل على الإقلال من الأهمية التى يعلقها الأهل والمعلمون والتلاميذ أنفسهم على الوراثة وأثرها فى الحياة .

وهو يعرض للتقارير المدرسية واحتمال إساءتها للتلاميذ فى كثير من الأحيان ، ويقول إن المعلم ينبغى أن يلطف من قيود التنظيم المدرسى وقوانينه كى تتوافق مع ظروف التلميذ المنزلية ، كأن يكون أكثر تساهلا مع طفل يقسو عليه أهله فلعل فى ذلك مواساة له وتشجيعاً يدفعان به إلى التقدم بدلا من دفعه بغير ذلك إلى اليأس والقنوط . ذلك لأن أدلر يرى أنه لا ينبغى الاستيئاس من أى طفل بل ينبغى التنقيب عن الوسيلة التى نستطيع بها أن نعتصر من الطفل خير ما عنده . لهذا يرى تجنب رسوب التلاميذ لما يتبع ذلك من تعويدهم على إدمان الرسوب وتقبل الخيبة ، بأن نلجأ إلى استخدام العطلة المدرسية للبحث عن الأخطاء فى حياة التلميذ وإصلاحها حتى يستطيع اللحاق بإخوانه ، ويرى أدلر أنه

ينبغى الاستعانة فى ذلك بنظام الرواد[١] .

وينقد صاحبنا ازدحام الفصول باالتلاميذ ، فيلح فى الإقلال من عددهم فى الفصل الواحد ، ويقترح الأخذ بنظام معلم الفصل الذى يلازم التلاميذ عاماً بعد عام ، حتى يستطيع دراسة كل منهم عن كثب ويتتبع نموه ، فيستطيع أن يعالج أخطاءه ويحسن توجيهه وإرشاده .

وهو لا يرى تقسيم التلاميذ تبعاً لتفوقهم بجمع الممتازين منهم فى فصول خاصة ، ثم الأوساط والمتأخرين كل فئة وحدها . بل يقول إن من الخير ألا نحرم الفصل الواحد مما يوجد به من فروق إذ ينبغى أن نبقى فيه على الممتازين منهم يبعثون الحماسة ويثيرون فى الفصل روح التقدم ، فإن خفنا عليهم الملل والشرود فلنملأ وقتهم بالنشاط الخارجى كالرسم أو الموسيقى أو الاطلاع .

ويذكر أدلر بمناسبة ذلك أن المرء يدهش إذا لاحظ أن الفصول المتأخرة ليست مملوءة بالأغبياء كما يظن كثيرون بل بأطفال الأسر الفقيرة . ويقول إن العلة فى ذلك سوء إعدادهم للحياة المدرسية ، لقلة فراغ أهلهم الذى يسمح لهم بالعناية بهم ، أو لجهلهم بأصول التوجيه والإرشاد اللازمين لهم . ومن ثم لا ينبغى أن يوضع أولئك الذين يعوزهم الإعداد النفسى الصالح فى الفصول المتأخرة ، بل خير من ذلك أن يعمل « الرواد » على عونهم وأن تنشأ لهم الأندية التى يستطيع أن يتردد عليها المحرومون من الصغار ، يؤدون فيها واجباتهم المدرسية ويلعبون أو يقرأون ، ويكون لهم فيها من النشاط الرحب السليم ، ما يصلح شأنهم وما يهيىء لهم من الحياة ما يبعثهم على الرضى والعمل ، وما يستثير فيهم القوى الكامنة ويصقلها .

ويشجع أدلر التربية المختلطة إذا قام بها من يؤمنون بنفعها ، ومن يتوفرون على حل المشاكل التى تنشأ عنها ، ويرعون الفروق العقلية بين الجنسين . أما التربية الجنسية فهو يرى أنه لا يسهل القيام بها فى المدرسة ، ذلك لأن المعلم

---

(١) Tutors ويقصد بالرائد المربى الخاص الذى يقوم على توجيه الطفل وإعداده .

لا يستطيع أن يدرك كيف تفهم أقواله عنها إذا ألقيت أمام جمع كبير من التلاميذ يختلفون بعضهم عن بعض فى تفسيرها والعمل بها .

ثم يشير إلى التربية الفردية فيدعو إلى تربية الصغار باستثارة ميول كل منهم وتلمس المواد التى ينجح فيها ، فليس أدعى إلى النجاح من النجاح ، فإن هذا المثل يصدق على التربية صدقه على وجوه الحياة الأخرى . ذلك أنه يمكن اصطناع توفيق الطفل فى مادة أو أمر ما لبعثه على القيام بغيره . كذلك يدعو إلى العناية بكفايات الطفل الحسية فإذا بدأنا بإفلاحه فى الأمور البصرية أو السمعية فقد نستطيع أن نعتمد على ذلك لتنشيط كفاياته الأخرى .

تقوم التربية إذن عند أصحاب السيكلوچية الفردية على حسن النية والعطف على الصغار ، ويعتمد حل مشاكلها الكثر على حذق المربين ، وسعة حيلتهم ، وخصب خيالهم فى تجنب الأخطاء التى أسلفنا الإشارة إليها ، وفى الحذر من زيادة شعور الطفل بالقصور ، وقد وضعوا لذلك ثبتاً يحوى أهم الحيل البيداجوجية التى تشتق من مذاهبهم هداية للأهل والمعلمين على معاملة الصغار وإحسان توجيهم ، دعوا فيه إلى :

(١) الإقناع بروح الصداقة : إذ تنبغى العناية بعلاج ميل الطفل الطبيعى إلى مناهضة الكبار . فى أية حالة يظهر فيها ذلك يلزم أن نرشد الصغير إلى استخلاص نتيجة عمله من المقدمات التى يسلم بها والتى يقتنع بنفسه أنها جلية صحيحة واضحة .

(٢) صرف الذهن : إذا أشرف أحد الأطفال مثلا على الخطر — كصغيرة يخشى عليها أن تهوى من النافذة — يكفى لعلاج المشكلة تماماً أن نصرف ذهنها سريعاً عن ذلك بتحويل شوق الصغيرة إلى أمر آخر . غير أنه ينبغى أن تثير لهجة الوالد وغنة صوته شوقاً ملحًّا صحيحاً فى نفس الطفلة ، إذ أن غنة الصوت تفوق فى الأهمية قيمة الأمر الجديد . ويكفى فى بعض الحالات أن نوحى بلعبة جديدة أو أن نقترح القيام بتسلية مشوقة لجذب انتباه الطفل

عن نشاطه المزعج ، أو عبثه المؤذى ، أو لحل شجار حاد بينه وبين غيره ، بشرط ألا نكون قد أثرنا فيه حب المعارضة بما نكون قد ألقيناه عليه من قبل من أوامر ونواه .

(٣) عدم الاهتمام : خير السبل لمعالجة نزوات الأطفال التى يتعمدون بها مضايقة الكبار أو إثارة حنقهم وغضبهم ، هو تجاهل ما يفعلون تجاهلا تامًّا . لكن هذا التجاهل ينبغى أن يخلو تماماً من روح الزهو وألا يكون مشبعاً بالانفعال ، لأن فى تجاهل أفعال الطفل تجاهلا واضحاً متعمداً ما ينيله الفوز الذى يسعى إليه . إذ لا بد أن يؤمن الطفل حقًّا بأن أحداً من والديه أو معلميه لم يتأثر بتاتاً بالعبث الذى بدر منه .

(٤) الإصلاح عن طريق تقليد أعمال الصغير : يمكن علاج الطفل من عادة سيئة بالتقليد ، حتى يتبين به الصغير سخف الحلة التى ألفها ، فإذا كان الطفل فى حديثه العادى يتكلم بصوت خافت إلى حد لا يمكن فهمه ، فليهمسَ المعلم بصوت أخفت من صوت الصغير ، وكثيراً ما يجدى ذلك تماماً فى دفع الطفل إلى الإقلاع عن عادته .

(٥) الإصلاح عن طريق العكس : تتصل تلك الحيلة اتصالا وثيقاً بالحيلة السابقة فكلما علا صوت الطفل ، وازداد صراخه ، انخفض صوت المعلم أو الوالد انخفاضاً يصل إلى الهمس الرفيق الهادئ .

(٦) الإلغاز أو بلبلة الطفل : تتعلق الحيلتان الرابعة والخامسة — والثالثة إلى حد ما — بهذه الطريقة . إذ يمكن تعليم الطفل بعد النظر وحسن تقدير الأمور ودفعه إلى الإقلاع عن سوء مسلكه ، إذا كانت استجابة الوالدين لما يفعله لاستثارتهم استجابة غير منتظرة أو مخيبة لأمله ، إذ يجد الطفل فى هذه الظروف سلاحه مفلولا لأنه لا يجدى مع أحد . فلو أن الطفل عمل حركة مكروهة بوجهه فلتقترب منه عن كثب ولتمعن النظر إليه فيسارع إلى سؤالك بقوله : « لم تنظر إلىّ على هذا المنوال ؟ » فتجيب : « أودّ أن أفعل

ما تفعل فإن ذلك أمر ممتع حقاً » .

(٧) الفكاهة : — روح المرح أهم حيله بيداجوجية . على أنه لابد من إحسان استخدامها لأنها فى ذلك كالحيل الأخرى ، قد تمس شعور الطفل وتلهب ثورته . فينبغى البعد عن السخرية بالصغير ، لأنها إذا كانت وسيلة قد تجدى لإصلاح شأن الكبير ، فإن الطفل لا يكاد يطيقها ، لأنه يرى فيها تحقيراً لشأنه ومهانة لأمره . بل تكفى الفكاهة الرفيقة والنكتة الخفيفة ، لتلطيف المواقف المتوترة وكسب أكثر الصغار .

(٨) التأنيب الهادئ الممزوج بالثناء : — كأن يقال « أنت عاقل حقا كما نعهدك لكن الحمق ركب رأسك هذه المرة » أو « لقد أحسنت القيام بذلك ، لكنك قد تجيد وتتفوق أكثر من ذلك لو قمت به على هذا المنوال أو ذاك » .

(٩) اللجوء إلى نضوج الطفل العقلى : — كأن يقال له « قد يكون هذا الأمر مدهشاً من صبى فى السابعة لكنك قد بلغت التاسعة بل تخطيتها » غير أنه لا ينبغى الإسراف فى اصطناع هذه الحيلة لأنها تفقد قيمتها وقوتها إذا تكرر استعمالها .

(١٠) تعمد أن تخطئ فى فهم السوء : — فإذا ثار طفل وقلب المقعد قال أبوه « ما أسوأ أن وقع المقعد ! هل أصبت بسوء ؟ يا سلام ما أشد ما أثار من جلبة وضوضاء ! » فيسقط فى يد الطفل ، ولا يحتمل أن يدفعه عناده وكبرياؤه إلى تصحيح خطأ أبيه فى فهم ما بدر منه ، فيقلع عن فعله مستيئساً من جدواه .

تلك هى أهم الحيل التى يقولون بها لعلاج نزوات الصغار غير أنهم لا يضمنون صلاحيتها إلا مع حسن فهم المعلم أو الوالد للسيكلوجية الفردية ، وعلى حضور بديهته ورحابة صدره وبعده عن التأسى على أى فعل يصدر عن الطفل بل أخذه بالرفق الممزوج بالفكاهة والمرح . فهم يدعون إلى فهم

النظام ، وخاصة فى المدرسة على منوال جديد تتحطم معه تقاليد النظام الحربى . فينبعث الأطفال إلى فهم النظام والإيمان به إيماناً تلقائياً ويعملون على إقامته راغبين فيه ، تدفعهم إليه روح التعاون والتعاضد ، ذلك لأن التلميذ إذا لم يمل المدرسة لم يعبث بسير العمل فيها . ولم نعد نحن فى حاجة إلى فرض الطاعة والصمت عليه فرضاً .

هذا إلى أنهم يرون أن أشد الأذى الذى يصدر عن الأشكال الخاطئة من التربية لا ينشأ عن المبادئ التى تقوم عليها ، بل عن أساليب الحياة التى ينتهجها الآباء والمربون وعن سوء تكوينهم النفسى ، وما يملأ نفوسهم من ألوان الأخطاء والغايات الموهومة التى يتوقون إلى تحقيقها من سلوكهم . فلا تكون علاقتهم بالصغار سوى جانب من نشاطهم فى المجتمع كله . فإذا كان المرء قد قاسى فى طفولته من قسوة الأهل والناس عوض عن ذلك بفرض سطوته على النشء وحاول أن يبرر سلوكه تبريراً لاشعورياً ، بما يؤمن به من أصول التربية . فهو يقيم الحجة ، فى نفاق بيّنٍ واضح ، على أن من المحال تنشئة الصغار دون عقوبة صارمة وحزم تام شديد . وهو بذلك لا يبعثهم على حب العمل والإيمان بالنظام وعمل الخير بعثاً تلقائياً ، بل يفرضه عليهم فرضاً ينفرهم منه ويستثير فيهم الحفيظة والثورة عليه . كذلك الأمر يفسد فى من دللوا من قبل إذا اعوجت حياتهم لأى علة من العلل .

فإذا أردنا إصلاح التربية « كان لابد أن نبدأ بتربية المربين » كما يقولون ، نأسو ما أصابته العلة منهم ونصلح ما اعوج فى نفوسهم ، ثم ننظر إلى ما يؤمن به كل منهم ويسير عليه من نهج فى تنشئة الصغار ، حتى نستطيع أن نهديه سبيل التربيه السليمة التى لا يبتغى فيها المربى إشباع أهوائه ، أو تكرار الأسلوب الذى نشأ هو على منواله ، بل عون الصغير على النماء الصحيح المتناسق .

غير أن ما نراه من تتابع تلك الأخطاء من السلف إلى الخلف ، لا بعامل

الوراثة بل تبعاً لتأثير البيئة التى يحيون فيها ، وللعوامل المتشابهة التى تؤدى جيلا بعد جيل إلى نفس النتائج : يخطئ الآباء فى حق أولادهم ، ثم يكبر هؤلاء فيخطئون بدورهم فى حق أبنائهم — يدفعنا هذا إلى القول بأن إصلاح التربية سوف تقوم فى طريقه عقبات سيكلوجية هائلة قد يعسر التغلب عليها .

لهذا يرى أصحابنا أن ليس هناك من أمل فى إصلاح سريع للتربية السيئة التى تتوارثها الأسر جيلا بعد جيل ، إلا أن نستبدل بها التربية الشعبية . ذلك لأنه سوف يمكن تجنب الأخطاء القديمة فى المدرسة بانتقاء المعلمين انتقاء حسناً تبعاً لما يتوفر فيهم من الكفايات المهنية والنفسية التى تهيئ لهم القيام بالمهمة الملقاة على عاتقهم ، بينا لا يمكن أن ننتقى الوالدين أو نستبدل بهما غيرهما . وهم يقولون إنه مع أن الأسرة سوف تبقى عاملا هاماً من عوامل التربية إلا أنه من الواضح ، كما يرون ، أن العصر الحاضر عصر انحلال للأسرة فمن الخير ان نقيم مستقبل التربية على شكل شعبى حديث تقوم الجماعة بتنظيمه ووضع قواعده وطرقه وأصوله .

* * *

وهم ، بعد ، يدعون إلى تعريف سلبى للتربية يرون أن أصولها لا ينبغى أن تؤدى إلى إنشاء طراز معين من الناس ، بل أن تهدينا السبيل الذى يبعد بالصغار عن الأمراض العصبية والنفسية ويجنبهم الشذوذ والإجرام وبهذا يكون فى البعد عن الأخطاء التى أسلفنا الإشارة إليها ما يهيئ للطفل خير السبل للنماء الحر الطليق .

لهذا عنى آدلر وأتباعه بمشاكل الصغار وعلاجها عناية كبيرة فبدأوا بتنظيم « عيادات إرشاد الطفل » ووضع طرائقها فى الكشف عن عوج الأطفال وأساليب إصلاحه .

ونحن نورد فيما يلى منهج الاستقصاء الذى وضعته الجماعة الدولية لعلم النفس الفردى ، لفهم الأطفال الشواذ وعلاجهم ، وسوف نعرض لتفصيل

ذلك وتنظيمه عند الحديث عن العيادات السيكلوجية .

(١) منذ أى وقت بدأت الشكوى من الصغير ، وأى نوع من المواقف (النفسية أو غيرها) وجد الطفل فيها نفسه ، حين لوحظت نقائصه لأول مرة ؟

الأمور الآتية هامة : تغير البيئة ؛ بدء الحياة المدرسية ، مواليد فى الأسرة ، أخوة أو أخوات أكبر منه أو أصغر ، أشكال الفشل فى المدرسة ، تغير المعلمين أو المدرسة ، أصحاب جدد ، أمراض الطفل ، طلاق الوالدين أو زواج أحدهما أو وفاته .

(٢) هل لوحظت عليه بعض الخصائص فى سن مبكرة ، تتعلق بالضعف العقلى أو البدنى ، الحياء ، الإهمال ، التحفظ ، الفظاظة ، الحسد ، الغيرة ، الاعتماد على غيره عند تناول الطعام أو اللبس أو الاغتسال أو الذهاب إلى الفراش ، هل كان الطفل يخاف البقاء وحيداً أو يخشى الظلام ؟ هل يفهم دوره الجنسى ؟ أى مميزات الجنس عنده الأولى أو الثانية أو الثالثة ؟ كيف ينظر إلى الجنس الآخر ؟ إلى أى حد وصلت معرفته بدوره الجنسى ؟ هل هو ربيب ؟ غير شرعى ؟ متبنى ؟ يتيم ؟ كيف كان يعامله أولياؤه ؟ ألا يزال على صلة بهم ؟ هل تعلم الكلام والمشى فى الوقت المناسب ؟ دون صعوبة ؟ هل نبتت أسنانه نمواً عادياً ؟ ما صعوباته الواضحة فى تعلم القراءة أو الرسم أو الغناء أو السباحة ؟ هل هو متعلق تعلقاً خاصاً بأحد والديه أو جدوده ، أو مربيته .

من اللازم أن نبحث فيما إذا كان معاديا لبيئته ، وأن نبحث عن أصل شعوره بالقصور ، وعما إذا كان يميل لتجنب الصعاب ، وعما إذا كانت تبين منه دلائل الأنانية والحساسية .

(٣) هل الطفل مجلبة كبيرة للمتاعب ؟ مم وممن يخاف أكثر ؟ هل يبكى ويصرخ ليلا ؟ هل يبول على فخذيه ؟ هل تبدو سطوته على أترابه الضعاف أو على الكبار أيضاً ؟ هل يرغب رغبة شديدة فى النوم فى فراش

والديه ؟ هل كان دميما ؟ هل أصيب بالكساح ؟ كيف حال ذكائه ؟ هل عوكس أو سخر منه كثيراً ؟ هل يبدو منه الزهو بشعره أو ملابسه أو حذائه ؟ هل يدمن قضم الأظافر أو العبث بالأنف ؟ هل هو شره فى تناول الطعام ؟

من المفيد أن يعرف مقدار جريه وراء التفوق ، وعما إذا كان العناد يمنعه من إشباع رغبته فى النشاط .

(٤) هل يسهل عليه اكتساب الأصدقاء ؟ هل يبدو منه التسامح نحو الناس والحيوان أم هو مولع بمضايقة الحيوان وتعذيبه؟ هل هو مولع بالجمع والاكتناز ؟ هل يبدو منه الطمع أو الجشع ؟ هل يقود الآخرين ؟ هل يميل إلى العزلة ؟

تتصل هذه الأسئلة بقدرة الطفل على إقامة الصلات بغيره ، وبمقدار ما يثبط همته عن ذلك .

(٥) بالإشارة إلى ما تقدم ما هو مركز الطفل الحالى ؟ كيف يسلك فى المدرسة ؟ هل يميل إليها ؟ هل هو مواظب ؟ هل يكون منفعلا عند ذهابه إليها ؟ هل يسرع فى رحيله ؟ هل يفقد كتبه أو جعبته أو كراساته ؟ هل ينفعل من واجباته أو قبل الامتحان ؟ هل ينسى أداء عمله المدرسى أو هل يرفض القيام به ؟ هل يعبث بوقته ؟ هل هو مكسال ؟ بل يعوزه تركيز الانتباه ؟ هل يثير الاضطراب فى الفصل ؟ كيف ينظر إلى معلمه ؟ هل هو نقاد « وقح » لا يهتم بالمعلم ؟ هل يسأل الآخرين عونهم فى دروسه ؟ أو هل ينتظر حتى يدعى إلى ذلك ؟ هل هو طموح فى الرياضة والألعاب ؟ هل يعتبر نفسه قليل الموهبة ، أو معدوم النصيب منها تماماً ؟ هل يقرأ كثيراً ؟ أى الكتب يفضل ؟

تعين هذه الأسئلة على معرفة مقدار استعداد الطفل للحياة المدرسية وتبين نتيجة « تجربة الذهاب للمدرسة » ، وموقف الصغير إزاء الصعاب .

(٦) كيف حال الأسرة ؟ الأمراض . إدمان الخمر . الميول الإجرامية . الأمراض العصبية . الضعف . الصرع . مستوى المعيشة . الوفيات فى الأسرة وسن الطفل عند حدوثها . هل هو يتيم ؟ من المسيطر على الأسرة ؟ هل التربية فى المنزل حازمة ، كثيرة التقريع تتلمس السقطات أم هى لينة متساهلة ، هل تبعث المؤثرات المنزلية الطفل على الخوف من الحياة ؟ ما مبلغ الإشراف عليه ؟

مِن مركز الطفل وموقفه فى محيط الأسرة نستطيع أن نحكم على المؤثرات التى تقع عليه .

(٧) ما هو موقف الطفل بالنسبة لمركزه فى الأسرة ؟ هل هو الأكبر أو الأصغر أو هو الطفل الوحيد أو الولد الوحيد أو البنت الوحيدة ؟ هل تكثر منه المنافسة أو الصياح أو السخرية أو الميل إلى تحقير غيره .

يهمنا ما تقدم لدراسة الخلق لأنه يلقى ضوءاً على موقف الطفل إزاء الآخرين .

(٨) هل فكر الطفل فى تخير مهنة له ؟ ماذا يرى عن الزواج ؟ ما هى صناعة أفراد الأسرة ؟ كيف حال العلاقات الزوجية بين والديه ؟

قد نستنبط من ذلك قدر شجاعة الطفل وثقته بالمستقبل .

(٩) ما أحب ألعابه وأقاصيصه وأبطاله فى التاريخ والروايات ؟ هل هو مولع بإفساد ألعاب الآخرين ؟ هل هو خصب الخيال ؟ هل يفكر تفكيراً رصيناً ؟ هل يغرق فى أحلام اليقظة ؟

تتصل تلك الأسئلة باحتمال ميله للقيام بدور البطولة فى الحياة . أما نقيض ذلك فى سلوك الطفل فقد يعتبر علامة على ضعف الهمة .

(١٠) ما هى أولى ذكريات الصغير ؟ هل تفد عليه أحلام صارخة أو دورية عن الطيران ، أو السقوط أو قلة الحيلة ، أو الوصول إلى المحطة بعد فوات الموعد ، أحلام القلق .

كثيراً ما نجد فيما يتصل بذلك ميلا للعزلة ، ورغبة فى الحذر وخصائص للطموح وتفضيلا لبعض الناس أو لحياة الريف . . . الخ .

(١١) مم يستيئس الطفل ؟ هل يعتبر نفسه مهملا ؟ هل يستجيب سريعاً للمدح ؟ هل لديه أفكار خرافية ؟ هل يتجنب الصعاب ؟ هل يعالج كثيراً من الأمور ثم يتركها ؟ أيكثر عنده الشك فى مستقبله ؟ هل يؤمن بآثار الوراثة السيئة ؟ هل ألح عليه من يحيطون به فى تثبيط همته ؟ هل هو متشائم فى النظر إلى الحياة ؟ .

سوف تساعدنا الإجابة عن هذه الأسئلة للتثبت من أن الطفل قد فقد ثقته بنفسه وأنه قد انحرف عن السبيل السوى .

(١٢) ألدى الصغير حيل أو عادات سيئة أخر مثل التبالُه أو ادعاء الغباوة ، أو المغالاة فى الطفولة والعبث ؟

يبدو فى هذه الحالات الميل للعمل على جذب الانتباه .

(١٣) هل فى كلام الطفل عيوب ؟ هل هو قبيح الهيئة ؟ أعرج ؟ فى قدمه أو ساقه عاهة ؟ ناقص النمو ؟ خارق القوة أو الطول ؟ غير متناسب البدن ؟ به شذوذ فى تكوين العين ؟ أو الأذن ؟ ضعيف العقل ؟ أشول ؟ يشخر ليلا ؟ رائع الوسامة ؟

تلك هى النقائص التى يبالغ الطفل غالباً فى قيمتها والتى قد تثبط همته على الدوام . كما أنه كثيراً ما يظهر النمو الخاطئ أيضاً فى خارق الجمال من الأطفال إذ تلازمه فكرة ملحة فى إمكان الحصول على مايرغب دون جهد أو عناء ويفقد مثل هؤلاء فرصاً كثيرة لإعداد أنفسهم للحياة .

(١٤) هل يكثر حديث الصغير عن قلة كفايته ؟ وعن عوزه إلى الموهبة فى المدرسة أو العمل أو فى الحياة ؟ هل يعرض له التفكير فى الانتحار؟ هل هناك صلة زمنية بين فشله وبين اضطراباته ؟ وهل يسرف فى تقدير النجاح الذى يحصل عليه ؟ هل يتميز بالاستكانة أو التعصب أو الثورة ؟

تبدو لنا هنا مظاهر اليأس الكبير التى يظهر أغلبها بعد الجهود الخائبة التى يبذلها الطفل للتخلص من متاعبه . ويعود جانب من فشله لعبث الجهود التى بذلها والجانب الآخر لقلة فهم الأشخاص المتصلين به .

لكن لابد له من إرضاء أهوائه بشكل ما ، فهو يسعى نحو شكل آخر من النشاط أكثر سهولة ويسراً .

(١٥) ما هى الأمور التى نجح فيها الطفل ؟

تزودنا تلك « الأعمال الحقيقة » بمعلومات قيمة . إذ يحتمل أن تشير إلى رغبات الطفل ، وميوله ؛ واستعداداته إلى وجهة أخرى غير تلك التى ذهب فيها من قبل .

بذلك نكوّن فكرة صحيحة عن فردية الطفل من الإجابة عن الأسئلة السالفة . على أنه لا ينبغى تتبعها بانتظام أو على منوال شكلى، بل على طريقة تكوينية على سبيل المحادثة ، وسوف نرى أنه مع عدم وجود ما يبرر أوجه الفشل فسوف نستطيع تفهمها وإدراك أسبابها . وينبغى بعد ذلك أن نشرح للطفل أخطاءه فى صبر وأناة تظهر فيها روح العطف والصداقة دون التجاء إلى إنذار أو تهديد .

الفصل الثالث

العلاج النفسى

يقول أصحاب السيكولوجية الفردية إن المرء إذا اعوج ، ولم يوفق إلى انتهاج السبيل القويم فى الحياة ، عجز عن أداء ما يطلب منه فيها ، وساءت استجابته لمطالب البيئة والجماعة ، وإذا به يرتكب من أخطاء العيش ما ينحرف به نحو الأمراض العقلية أو خاصة نحو الأمراض النفسية والجريمة ، وهم يرون أنه يمكن إصلاح الأخطاء النفسية عند من لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره أو ما بعدها بقليل بتهيئة البيئة التى يعيش فيها تهيئة حسنة ، وبتعديل معاملة الأهل وغير الأهل له ، تعديلا يؤدى فى أكثر الأحيان إلى استقامة أمره . ثم يدعون أن طريقتهم كفيلة بعلاج نفوس البالغين إذا اصطنع طريقتهم فى التشخيص والعلاج أطباء توفروا على دراسة مذهبهم وآمنوا به وأخلصوا فى تطبيقه .

يقولون أول الأمر إن العلاج النفسى محال ، إذا لم يسع المريض بنفسه إلى الطبيب النفسى إذ لا خير فى علاج مريض أرغمه أهله إرغاماً على استشارة الطبيب دون رغبته فى العلاج ، ذلك لأن المريض إذا قبل أن يتردد على الطبيب تبعاً لإلحاح أهله ، أخذ يحاول أن يثبت لهم عبث الجهود التى تبذل لعلاجه ، وجدب المحاولات التى يرجى منها إصلاح أمره . ومع هذا فقد يقبل المريض على العلاج ، إذا وفق الطبيب أن يكشف له عن حقيقة حاله كشفاً رائعاً مقنعاً ، يغير موقف المريض إزاءه ويدفعه إلى التردد عليه بمحض رغبته .

ويرى أدلر أن أهم خطوة فى العلاج هى الكشف عن النظام العصابى للمريض (١) أو عن نمط حياته(٢) . لأن المرَض ينشأ فى أساسه من أن المريض كون لنفسه منذ الطفولة ، غاية يود تحقيقها ، تناقض الحقيقة وتعارض أوضاع الجماعة ومطالب الحياة الإنسانية لأنها نشأت منذ الطفولة المبكرة ، يوم كان المرء قليل الخبرة محدود التجربة ، بعيداً عن الحياة وما تواضع عليه القوم فيها . ويقول أدلر إن خير ما يعين على ذلك الكشف أن يتقمص الطبيب شخصية المريض وأن ينظر إليها نظراً فنياً مباشراً (٣) .

وينصح أدلر أتباعه بتجنب الوقوع تحت سطوة المريض ، ويرى أن من اللازم لذلك : ألاّ يعد الواحد منهم أى وعد بنجاح العلاج حتى فى أكثر الحالات أمناً وأملا ، وأن يكتفى فقط باحتمال ذلك حتى يحمل المريض تبعة العلاج ونجاحه وأن يطلب إليه تعاونه وصداقته . ويتصل بذلك ألا يربط دفع الأتعاب بالحصول على الشفاء ، ذلك لأن المريض — تبعاً لمرضه الذى يلهب الميل إلى السيطرة فى نفسه — سوف يستخدم كل وسيلة لمضايقة الطبيب والاعتداء على كرامته وتجريح حججه وأقواله . لهذا يرى أدلر أن من الخير ترتيب مسائل الأتعاب والمواعيد وسرية العلاج منذ مطلع الأمر ، ويقرل — إلى ذلك — إنه من الخير أن يكون المريض هو الذى يتردد على الطبيب .

فإذا نظم الطبيب أمره إزاء المريض ، شرع معه فى نقاش موقفه ، متعاوناً معه على تلمس « نمط الحياة » الذى أدى به إلى هذه الحال ، فإذا عجز المريض عن عون الطبيب على ذلك كان من الخير أن يدرب الطبيب المريض كيف يتبين الخطأ فى أسلوب حياته ويتعرف مقدار زيغه عن السبيل السوى .

---

(١) Neurotic System

(٢) Life Style

(٣) Adler : *Theory and Practice of Individual Psychology*, p. 42.

ويعتمد السير فى العلاج على لون كل حالة على حدة .ففى بعض الحالات يرى أصحابنا أن الطبيب يستطيع بعد الجلسة الأولى ، أن يلقى إلى المريض إحدى الحقائق التى اتضحت له عن علته ، كأن يقول له إنه يخشى الزاوج ، أو إنه يود الفرار من مشكلة بعينها ، أو إنه قد اتخذ المريض أداة لتبرير خيبته فى عمله . . . وما إلى ذلك . لـــكنهم يقولون إن إخبار المريض بإحدى تلك الحقائق الساذجة دون انتظار البراهين القوية الأخرى التى تؤيدها يعتمد على ظروف الحالة ومقدار وضوحها ، ويرون أن ذلك الأسلوب قد يسدى جزيل النفع لبعض المرضى ، لأن الطريقة التى يصطنعونها فى تفسير السلوك الإنسانى على ضوء الهدف والغاية لا على ضوء العلة والمعلول ، تشده الناس وتأخذ بلبهم ، فيقبلون على العلاج فى إقدام وحماسة . لكن ذلك التفسير المباشر ، قد يكون شديد الخطورة فى بعض الحالات الأخرى ، لا لسبب إلا أنه صحيح مصيب . ذلك لأن تفهم المريض لطبيعة مرضه مفاجأة تمنعه من التعرف على الحقيقة فى المستقبل : إذ يرى أصحابنا أن كثيراً من المرضى لا يستشيرون الطبيب النفسى انتجاعاً للصحة ، أو التماساً للبرء من العلة ، بل تبريراً للمرض الذى اتخذه كل منهم ذريعة يزيغ بها عن نهج الحياة السوى . فلو تحقق المريض فى مطلع تردده على الطبيب ، أن هذا لن يعالجه كما يعالج المريض حقا ، بل سوف يعامله كما يعامل الهارب من ميدان الحياة ، وأنه سوف يناقشه الحساب عن مشاكله ، كما يناقش الإنسان السوى ، فقد يولى المريض هارباً من هذا المأزق الذى أوقع نفسه فيه ، محاولا أن ينقذ مرضه العصابى من هجمات المعالج المنطقية . لهذا يرون أنه من الخير أن يعامل هذا الصنف من المرضى ، أول الأمر ، فى رفق ودعة وسماحة حتى يطمئن الواحد منهم إلى العلاج ، وحتى لا يفلت منه إنقاذاً لنمط الحياة المعوج الذى اتخذه من قبل فى حياته .

ومن الأصول الأساسية للعلاج النفسى ، عندهم ، ألا نسرع بإخبار

المريض بكل ما نعرفه عن حياته النفسية ، وأن ندعه يفيض فى الحديث عن قصته وعن تفاصيل حياته ما استطاع الإفاضة ، قبل أن نبدأ بتفسير المعلومات التى يقدمها إلينا ، لأن المريض إذا اعتقد أن موقفه إزاء الحياة موقف واضح شفاف ، يسهل تفسيره على ضوء السيكاوجية الفردية ، لجأ إلى الصمت ، وأحجم عن الإفصاح عما يجول بخاطره ، وعن سرد أحداث حياته ، بل قد يتوقف عن الحلم أو قد ينسى أحلامه نسياناً تاماً ، لهذا لا ينبغى أن يصل الأمر بالمريض إلى ذلك التوقف العارض إلا بعد أن يكون المعالج قد تلقى من المعلومات الهامة عن المريض ، قدرا يمكنه من فهم الحالة فهماً كاملا ويغنيه عن أىحديث آخر معه . ومن الواجب على الطبيب : أن يفهم موقف المريض إزاء ظروفه كلها كما ينبغى أن يقف على حاضره وماضيه ، وأن يلمس العلاقة المتينة التى تربطهما ، لأن أقدم ذكريات الطفولة ، وآخر شكل من أشكال السلوك تتصل كلها وتتجمع فى إطار واحد يضم كل الخبرات التى مرت بالشخص ، فعلى الطبيب إذن أن يلخص حياة الفرد أحسن تلخيص ، حتى إذا بدأ المريض الصمت ، شرع المعالج فى حديثه .

والوجه الثانى من العلاج يكون على شكل نقاش وتجاذب لأطراف الحديث بين المريض والطبيب . ويرى أصحابنا أن ذلك الوجه من العلاج يقوم فى الواقع على إلقاء دروس فى السيكلوجية الفردية على المريض — أهم ما تختلف به عن الدروس المألوفة عادة ، هو طبيعة التطبيق الذى يقوم على دراسة حالة المريض فى ماضيه وحاضره ، وتتجه تلك البحوث نحو دراسة العلاقة بين ما لا يستطيع المريض القيام به ، وما لا يريد القيام به ، ومناقشة مسئوليته عن مظاهر سلوكه وأفعاله التى تصدر عن الدوافع اللاشعورية فى نفسه ، والكشف عن صنوف العراك المخبوءة فى أعماقه وشرح التهافت فى تجاربه الوجدانية حتى يستطيع المريض أن يعرف

أن الرغبة فى الأمر أو الرغبة عنه ليست حجة تؤيد القيام به أو البعد عنه .

غير أن مناقشة تلك المسائل فحسب ليست العلاج كله ، فقد يتأثر المريض تأثراً بالغ الوقع بذلك النقاش ، وقد يسلم تسليما عقلياً بما تقول به السيكلوجية الفردية ، على أنه قد يصدر عنه فى اليوم التالى عين الأخطاء التى تبين خطأها فى الجلسة السابقة ، لأن الاقتناع بصحة السيكلوجية الفردية ليست أمراً عقلياً بحتاً يمكن الإيمان به كما يؤمن الناس بنظريات العلوم الرياضية أو الطبيعية ، إذ أن الأمر فى العلاج يعتمد على مقدار تقبل المريض أو رفضه ما يلقى عليه من أقوال ، تقبلا أو رفضاً يقوم على على لون من المنطق الذاتى ، مشبع إشباعاً كبيراً بالهوى ، فقير كل الفقر إلى الفهم العام ، لهذا ينبغى التريث حتى يؤمن المريض بأصول السيكلوجية الفردية إيماناً قوياً ، تؤيده الحجج العقلية كما تسنده الميول الوجدانية .

وتتغير شخصية المريض خطوة خطوة ، كلما زاد يقينه من صحة ما تقول به السيكلوجية الفردية ، ذلك لأن التحول الداخلى هو العامل الأهم فى شفاء المريض . أما أعراض المرض فقد تتحسن كثيراً أو تختفى تماماً ، قبل ذلك . وقد تبقى بعض آثار المرض التافهة ، لكن بقاءها يثبت أن المريض لم يبرأ من علته برءاً تاماً ، فإذا وقفنا بالعلاج عند هذا الحد لم يكن علاجاً تاماً صحيحاً وإن رأى الناس فيه توفيقاً . لأن أصحابنا يرون أن المريض عند ذاك يكون قد تخلى عن كفاحه الخاطئ فى سبيل السيطرة مع عجزه عن إدراك أوضاع الحياة إدراكاً موضوعياً صحيحاً ، لأنه لم يساهم فى العلاج على الغالب سوى مساهمة عقلية خالصة نتيجة للشكل النظرى المجرد الذى ألقيت عليه به أصول علم النفس الفردى .

فإذا مرت تلك المرحلة الثقافية التحليلية ، بدأت مرحلة ثانية يحاول فيها المريض أن يحول علاقته بالطبيب إلى علاقة شخصية ، حتى قد تصل إلى حد الغرام بالمعالج : غير أن هذا ليس غراماً صحيحاً ، لأن

الغاية منه أن يسلس المريض قياد الطبيب ويسيطر عليه ، وهم هنا ينقدون أصحاب التحليل النفسى فى رأيهم بأن ذلك التحويل[١] تحويل جنسى ، ويقولون إنه ليس سوى محاولة لإفساد العلاج والخلاص من منطق الطبيب وتعاليمه، حتى لقد قال أحد المرضى للطبيب مرة « لك أن تلقى على الآن ما تود ، ولسوف أقسم لك على أن كل ما تقول به صحيح لأنك أنت الذى قلت به » ، وليس هناك أبلغ من ذلك القول لنقض تعاليم الطبيب .

فإذا فشل المريض فى إيقاع الطبيب فى حبائل صداقته أو غرامه المزعوم ، بدأت الكراهية المكشوفة أو المقنعة تعمل فى أساس العلاقة بينهما ، فيلتمس ما يمكن أن يشوه سمعته العائلية أو المالية حتى يتخذ من ذلك كله حجة يستطيع بها أن يثور على ما يلقى به عليه وأن يقول له :

يأيهـــا الرجل المعـــلم غيره هلاّ لنفسك كان ذا التعليم ؟

فإذا وصل أصحابنا إلى الحديث عن تلك المرحلة ارتفعوا إلى سماك التقى والتواضع ، وقالوا إن « صحة العقل » غاية مثالية لا يمكن أن يصل إليها أحد فى عالم الواقع حتى من يتخذون طب النفس مهنة ويحاولون علاجها . ويقررون أن الناس جميعاً أثمة خطاة ، أصابتهم العلة ووقفت بهم ، على القليل ، فى منتصف الطريق . وأنه لولا الظروف العارضة المؤقتة لجلس الطبيب مجلس المريض إلى الطبيب . ولهذا يقول أصحابنا إن أحداً منا ، ليس من حقه أن يعيب على غيره من الناس سقطاتهم وأن يعد عليهم هفواتهم ، فقد يكون له هو من الهفوات والسقطات أكثر مما يأخذه عليهم . وكأنهم فى ذلك يرددون ما ورد فى الحديث « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ». ذلك لأنهم يقولون إن من يخطئ فى فهم تعاليم سيكلوجيتهم فيخرج منها مثلا خلقية، ينهى على أساسها الناس ويهديهم السبيل، لن يكون سوى منافق أجدر بنا أن نهمس فى أذنه بقول عيسى المسيح : « من كان منكم

(١) Transference

بلا خطيئة فليرمها بحجر » . لهذا يدعو أدلر إلى الوقوف عند بيان ما فى نمط حياة المريض من خطأ تاركاً إياه حراً فى إصلاح شأنه بنفسه بعد ذلك .

مع هذا كله ، يخيل إليهم ، أنهم قد وفقوا إلى حل المشكلة ، إذا قصروا عمل الطبيب على تبيان نمط الحياة الذى استنّه المريض لنفسه ، وعلى هديه إلى النتائج التى سوف يؤدى السير فيه إليها ، دون أن يقدموا له أى نصح أو إرشاد خلال العلاج . لسببين أولهما : أن المريض قد يلقى على الطبيب تبعة تنفيذه ما قال به كاملة ثقيلة . والثانى : وهو الأهم أنهم لا يرون من حقهم هدى المريض فى حياته العملية ، حتى ولو أوتوا القدرة على ذلك . لأنه إذا كان من اليسير على الأطباء أن يرشدوا المريض إلى واحد من باعة العقاقير أو الكتب وجب عليهم ألا يبدوا له رأياً إذا ودّ أن يطلق امرأته أو يستقيل من عمله ، مؤكدين له أن ليس لهم من الحكمة ما يسمو على حصافة عقله . وأنه إن جاز لهم أن يقرروا ذلك فيما يتعلق بأمورهم الخاصة ، فليس لهم أن يقرروا له ما يود أن يقطع برأيه فيه .

هم يدعون إذن إلى تجنب فرض الرأى على المريض ، والتنازل عن إقناعه بصواب ما يقولون به . ومع أنهم يقولون إن ذلك أمر كبير العسر ، إلا أنهم يرون أن فى بعدهم عن ادعاء العصمة ، ما يسقط حجة المريض ضد الواحد منهم إذا تبين له أنه لا يتبع تعاليم السيكلوجية الفردية حرفاً بحرف ،حتى لكأنهم يودون بذلك أن يهتدوا بقول ابن عطاء السكندرى : « من غربل الناس نخلوه » وأن يتبعوا من قال :

لا تلم المـــرء على فعـــله ... وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئاً وأتى مثله ... فإنما يزرى على عقله[1]

---

(١) الغزالى : الإحياء ج ٢ ، ص ٣١١ .

فإذا أمكنهم الوصول بالمريض إلى حال يؤمن فيه بصحة ما يقول به مذهبهم وما يؤيده به الواقع والفهم العام ، لم يكن فيما قد يقع عليه من سقطات تنسب إليهم ما يفسد ذلك الإيمان . ذلك لأن الطريقة المثلى فى العلاج ، كما يرون ، هى ألا يعتمد الطبيب على حجته الخاصة بل على صحة ما يقول به « إذ لن يصدر عنه الحديث عندئذ ، بل عن منطق الحياة . وليس الطبيب سوى لسان حق يعلو عليه هو نفسه » .

ومع هذا يرون أن من الخير ، أن تقل سوءات الطبيب حتى يستطيع أن يحسن فهم العلاقات الإنسانية ، وأن يتخلص من الأحكام السابقة على الناس ، حتى يصل إلى مرتبة من الكمال تهيئه للقيام بدوره الجليل فى التبشير بما يقول به المذهب .

إذا فشل المريض إذن فى اتخاذ أخطاء الطبيب حجة لتحطيم السيكلوجية الفردية أخذت تعاليمها تفعل فعلها فى أعماق نفسه ، وأخذ سخف مرضه يبدو له وبذا تقف أعراضه ، وكثيراً ما يحل شفاؤه عقب ذلك . على أنهم يقولون إن ظروف الحياة الخاصة بالمريض قد تعطل شفاءه ، وقد تقف عقبة كأداء فى سبيله ، فلو أن سيدة لم تجد مفراً من عنت زوجها وفظاظته سوى المرض ، لكان من العسير عليها أن تستبدل به شكلا أكثر صلاحية لها فى حياتها معه. إذ قد يكون فى المرض ما يخفف عنها من عنته وعوج سلوكه . ومع هذا يزعمون أن فى تغييرها نمط حياتها ، ما قد يدفعه هو إلى التغيير فى نمط حياته . ذلك لأن الأرجح أن يكون كلاهما مريضاً يفسد الواحد منهما حياة الآخر ، فإذا استقام الأمر من ناحية ، فقد يؤدى آخر الأمر إلى استقامته من الناحية الأخرى .

ولا يصل المريض إلى البرء برءاً تاماً إلا إذا آمن فى أعماقه ، بغايات الحياة التى يقولون بها وهى كسب الرزق وتكوين عائلة والاتصال بالناس ، وحاول جاهداً أن يحققها ، وأن يعمل على أداء ما تتطلبه منه الحياة ، من

عمل وزواج ومصادقة ، عمل المؤمن بجدواه الراغب فيه المتوفر جهده عليه، وحتى يؤدى ذلك جميعه كما يتنفس الهواء أو يهضم الطعام . غير أنهم يقولون إن ذلك الهدف لا يمكن الوصول إليه فى عالم الواقع ولذلك يقتصر العلاج بالسيكلوجية الفردية على استبدال الأخطاء الصغيرة بالأخطاء الكبيرة، وعلى الدنو من منهج الحياة المثالى إلى أقرب حد مستطاع .

ونود أن نختم هذا الحديث بأن أصحابنا يقولون إنهم لا يستطيعون أن يثبتوا صحة طريقتهم فى العلاج بإحصاءات دقيقة يدعمون بها أقوالهم ، لأن كثيراً من المرضى يولون الأدبار حين تقبل عليهم طلائع الشفاء إنقاذاً لرغبتهم فى السطوة وحداً من فضل الطبيب عليهم إذا تم لهم الشفاء بتعاونه معهم .

هذا إلى أنهم يكثرون من ترديد ما قال به أدلر بأن العلاج النفسى[١] فن يعتمد على قدرة الذى يقوم به وحذقه . بل إنه فن رفيع ، لا يمكن تحديد أصوله تحديداً واضحاً ولا تقييد القائمين به ، بالقواعد والأصول الحاسمة التى ينبغى عليهم أن يتبعوها فى كل حالة تعرض عليهم .

وها نحن نوجز فيما يلى حالة[٢] شخصها أدلر بنفسه فى محاضرة على جمع من الأطباء أوضح فيها تفسيره لأعراض المرض وعلله، من مذكرات موجزة قدمت له عفو الساعة دون سابق معرفة بها أو إعداد ، وقد حذا فى ذلك حذو ما يتبعه أساتذة الطب فى شرح دروسهم على الطلبة مستعينين على تبيان طريقتهم باتخاذ أحد المرضى مثلا لذلك :

« كانت المريضة « ا » تبلغ من العمر الحادية والثلاثين حين أقبلت تلتمس العلاج » .

هى إذن سيدة متزوجة فى سن الحادية والثلاثين ؛ ونحن نعرف الظروف

---

(١) Adler : *The Theory and Practice of Individual Psychology*, p. 227.

(٢) Adler : *The Case of Mrs. A.*

التى يمكن أن توجد فيها مثل هذه السيدة . لعل فى حياتها مشكلات تتصل بزوجها ، أو أبنائها ، أو بحالتها المالية ؛ ومع أنا لا ينبغى أن نسبق بالفروض فإنى لعلى يقين أن لا بد من شىء ما فى واحدة من هذه النواحى الثلاث .

« تزوجت قبل ذلك بثمانى سنوات . ورزقت طفلين ، ولدين ، أحدهما الآن يبلغ الثامنة والآخر الرابعة » .

تزوجت من ثمانى سنوات ولها الآن ولد يبلغ الثامنة ! أترك ذلك لكم . لكنه قد يلزم أن نصلح لها ذاكرتها وأن ننظر إلى الأمر بعين علم النفس الفردى الثاقبة .

« زوجها يعمل فى أحد المحلات التجارية . وهو رجل طموح يعانى من ضعة شأنه كثيراً إذ أنه — على خلاف أخيه — كان يشعر أنه لا يستطيع تحسين حالته للعاهة التى أصيب بها فى ذراعه خلال الحرب الماضية » .

فإذا سلمنا بهذا لانتظرنا أن ينعكس ضيق صدره على حياته الزوجية ، لأنه لا يستطيع أن يرضى أطماعه خارج المنزل ، ولعله يحاول لذلك أن يظهر سطوته على زوجه وأولاده . لكنا ينبغى ألا نسرع فى الحكم ولنتريث .

« ومع هذا فإن زوجه لم تكن تشاطره متاعبه أو تعطف عليه من أجلها . . »

فإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن ينشأ بينهما خلف . ذلك لأن الرجل يود أن يحكم ، وزوجه لا تتيح له ذلك ولا تهيئ له فرصة .

« فقد كانت جد مشغولة بالأفكار الإجبارية وبما يساورها من مخاوف الموت »[١] ، لكن الحالة لا تبدو « عصاب إجبار »[٢] ، بل أكثر ما يلوح أنها « عصاب قلق »[٣] .

---

(١) Death Phobia

(٢) Compuision Nevrosis

(٣) Anxiety Neurosis

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن هذه السيدة المتزوجة ما دامت تشعر بالضيق، وتخشى الموت فهى مشغولة بنفسها لا تستطيع أن تؤدى ما عليها من واجب أو أن تعنى بأحد غير نفسها .

« وكانت هذه المخاوف تشغل عقلها إلى حد أصبح معه من العسير عليها أن تفكر فى شىء آخر » .

« على أنها كانت من قبل زوجة طيبة ، حتى لقد كان يسيطر عليها « كراهية حصارية »[1] للقذارة وحب « للأناقة والنظام » .

هكذا يبدو لنا الأمر فى صورة أخرى — هو عصاب الإجبار فيما يتصل بالنظافة ، فهى تخشى الوسخ وتلح فى تنظيف كل شىء ، إلى ما عندها من خوف الموت . فكأن المرض عصاب مختلط ، وهو حالة والحق نادرة كل الندرة ؛ ذلك لأن مالنا من خبرة يدفعنا إلى القول بأن المصابين بعصاب الاغتسال الإجبارى لا يصابون إلى جانبه بالهلع من فكرة الموت . . . وعلى كل يلوح لنا إذن أن هذه السيدة مشغولة عما كان يجب عليها فهى لا تتعاون مع رجلها بل هى دائمة الاهتمام بما تعانى مقبلة على تنظيف كل شىء . وتدلنا الخبرة العامة على أن هذا الأسلوب فى الحياة هو على الأغلب أسلوب الأطفال الذين يقاسون من أعضاء غير كاملة ويصبحون على الأكثر عالة وموضعاً للتدليل والرعاية المسرفة .

وهذه السيدة ترنو إلى مثل عال ، تود أن تبلغ من النظافة حدا لايستطيع أحد ما الوصول إليه . ومع أن النظافة أمر طيب دون شك ، إلا أن المرء إذا ركز دنياه حولها لم يستطع أن يعيش الحياة التى نعيشها . هذا إلى أن المثل الذى يرجوه لا يمكن ألبتة تحقيقه فلابد حيث نعيش من قليل من الغبار هناك وبعض القذارة هناك ... فإذا عنى المرء بعامل واحد من عوامل الحياة

---

(١) Obsessive Hatred

اضطرب تناسق الحياة فى كل حال ، سواء وجهت العناية إلى الصحة وحدها أو المال وحده أو العلم وحده . لكن هنا جانباً واحداً من جوانب الحياة لا يسىء التطرف فيه إلى تناسق الحياة السوية ، ذلك هو الاهتمام بالجماعة . ولنكمل النظر فى هذه الحالة .

« . . . وبعد كراهية القذارة ، وحب النظام والنظافة سواء فيما له صلة بمنزلها أو بشخصها — بدأت الآن تكثر إهمال كلا الأمرين » .

وهذا أيضاً ليس من الأمور المألوفة فى مثل هذه الحالة . غير أنه يخيل إلى أن هذه السيدة تطرفت فى إجبار نفسها على النظافة حتى استيأست منها . وهنا أود أن أذكر أنى لم أر أقذر من أولئك المصابين بعصاب الاغتسال . ولست أدرى إلى أى حد سوف تؤدى مضاعفات الحالة التى نحن بصددها . فقد يصل الأمر إلى الجنون ، إذ يحدث هذا أحياناً عند المصابين بعصاب الإجبار .

« وكان خوفها من الموت الذى أشرنا إليه من قبل متصلا بخوف مرضى من السكاكين » .

والمصابون بمثل هذا الخوف يهلعون عند رؤية السكين ، لأنهم يشعرون كأنهم يشرعون فى قتل أحد الناس ، لكنهم قلما يفعلون بل يقفون عند هذا الحد .

وقد تحدثنا من قبل عن الخلف بينها وبين زوجها : فهو طموح ، وهى على ما نعرف من تشخيص العصابيين طموح هى الأخرى ، تود أن تحكم وتترأس وأن تكون أنظف الناس كافة . وهى تتجنب زوجها وتتجنب قربه أو صلاته الجنسية لأن النظافة تعوزه . فكل شىء عندها قذر ، حتى القبلة عندها قذارة ، ولو نظرنا فى الأمر قليلا لرأينا أن روح التعاون ناقصة عند هذه السيدة ، ولأيقنا أنها امرأة « باردة » . ذلك لأن العلاقات الجنسية

بين الرجل والمرأة مهمة يتعاون فيها اثنان فإذا تركز اهتمام المرء حول نفسه اعوجت ميوله الجنسية . وهكذا نستطيع أن نزعم — مع أنه ينبغى أن نلتمس الحقائق — أن هذه السيدة تحنق على العلاقات الجنسية وتكرهها .

ثم نقرأ أمر الخوف المرضى من السكاكين .

« . . . كان متصلا بميول إلى الانتحار والقتل » .

والانتحار كذلك يدل على عوز الشخص إلى التعاون ، ذلك لأنه لا يعنى بسوى نفسه ، فالانتحار ضرب من الانتقام موجه نحو الغير . لهذا ينبغى أن نبحث عن الشخص الموجه إليه ، وهو هنا ليس إلا الزوج . وهذا تخمين لكنى أدعوكم إلى التروى حتى نرى ما يؤيد هذا الرأى .

« وكانت تشعر أحياناً برغبة جامحة لضرب زوجها . . . » .

هكذا صدق ظنى . فمن قواعد الطب العام أنك إذا أحسنت التخمين فقد تجد ما يؤيد رأيك فيما بعد .

« زوجها أو . . . »

أو أطفالها طبعاً فليس أمامها غيرهم . مع أنك لو سألتها هل تحب أطفالها لقالت إنها تعبدهم عبادة ، لكنا فى علم النفس الفردى ينبغى أن نصم أذننا وأن نفتح عيوننا فنرى كثيراً . ولعل فى الأمر أناس آخرون حماة مثلا . . . فلسوف نرى .

« زوجها أو أى شخص آخر قد يضايقها » .

ومن يضايق هذه السيدة ؟ الجواب عن ذلك أن أمثالها يعيشون كأنهم فى بلد من بلاد الأعداء، هم أغراب يخيل إليهم أن الكراهية تحيط بهم من كل ناحية .

« وقد اتخذت هذه الخصائص فى الأيام الأخيرة وجهتين : الأولى أنها كانت تشعر أحياناً برغبة ملحة فى ضرب أى إنسان يتصادف أن تمر به فى الطريق » .

ألم أقل ذلك من قبل ، هى إذن تعيش فى بلاد الأعداء يحيطون بها من كل ناحية ، فهى تطلب أن يتولى حمايتها منهم وأن يمنعها عنهم أحد الأعوان . ذلك لأنها بضرب الناس سوف تقع فى كثير من المتاعب ، فكأنها تطلب أن يرعاها أحد حتى يمنعها من سوء السلوك ، ومن هناك غير زوجها الذى ينبغى أن يعنى بها ويراقبها ويصحبها فى الغدو والرواح ، فهى بذلك تعرض عليه طريقة معينة لحياته. وهكذا ترون كيف استطاعت امرأة طموح أن تنتصر على زوج طموح ، فهى تأمر وهو يطيع وقد عرفت كيف تستغله وتسيطر عليه . . . ولنواصل الآن قراءة الحال .

« أما من الناحية الأخرى فإنها كانت تشعر بميل إلى قتل ابنها الأصغر الذى يبلغ الرابعة من عمره . . . »

وهذا أمر لم نحذره من قبل . إذ هو الطفل الثانى ، مما يدفعنا إلى الظن أنها لم تكن تريده ، ولعلها تسىء معاملته وتبالغ فى ذلك ، حتى يضطر زوجها إلى مراقبتها فكأنها قد استعبدته وكبلته . ولو أن زوجها كان قد لان كما يلين كثيرون من الأزواج ، لما لجأت هى إلى هذا الضرب من الحياة ، لكنه كان طموحاً وأرادها هى أن تخضع وتطيع غير أنه قد هزم وانتصرت هى . ولم تكن تستطيع تحقيق هذا النصر على المنوال المألوف فأبدعت هذا الأسلوب وافتنت هذا الطراز الرائع .

وهنا أود أن أطلعكم على طريقتى فى مثل هذه الحالات . وهى باختصار أن أقول « مدهش ، إن هذه لإحدى روائع الفن فلقد انتصرت » .

وهنا أود أن أبين المسألة كاملة متسقة : هذه السيدة تقصر نظرها على أمر واحد لا تود أن ترى غيره من وجوه الحياة ، لأن نظرها لو شمل غير هذا الأمر لنشط فى نفسها الميل الاجتماعى وقضى على أهميته ، وهى لا تود ذلك وقد لا تستطيع أن تقيم وحدها ذلك التوازن فى حياتها ، وهذه هى مهمتنا : أن نكون لها أعون من نفسها على رؤية ما فى نمط حياتها من خطأ . ولن

نستطيع ذلك إلا بالبدء فى امتداح مهارتها .

لكنا ينبغى أن نلقى بأنظارنا إلى ما قبل الحاضر، فنرى إلى طفولتها وعما إذا كانت منذ ذلك الحين تميل إلى الأمر والنهى والسيطرة ، وإنى لموقن أنا لو طلبنا إليها أن تسرد لنا أقدم ذكرياتها لوقفنا على ولعها بالسطوة منذ الصغر ، فماذا تفعل وهى كبيرة ، لقد هزمت بطريقة سوية عادية ، فهى تلتمس النصر بطريقة أخرى لا نرضى بها ولا تتفق مع العيش بين الناس .

« وكانت فكرة قتل الصبى تبلغ أحياناً من الشدة حداً كانت تخشى أن يدفعها إلى إخراج النية إلى حيز الفعل » .

وكلما كانت تزداد خشيتها من تنفيذ تلك الفكرة كان على الزوج أن يزيد الحيطة والرقابة .

« وذكرت أن هذه الأعراض قد وجدت منذ عام ونصف عام » .

فإذا كان هذا صحيحاً ، وجب علينا أن نعرف الموقف الذى دفع هذه السيدة إلى ذلك منذ عام ونصف عام ، مع أن المنتظر أنه كان ينبغى أن يحصل ذلك قبل هذا التاريخ .

« ومع ذلك فقد دلّ فحص أكثر دقة على وجود بعض الخصائص العصابية الواضحة منذ سنين ، وأن هذه الخصائص قد ازدادت منذ الزواج . بل لقد تطوعت هى نفسها بالقول بأنها « منذ تزوجت لم تعد الفتاة التى كانت قبلا » .

« منذ الزواج » ! هذا أمر هام لأنا نعرف بالخبرة أن فى الحياة ثلاثة مواقف هى بمثابة الامتحان لقدرة المرء على الاتساق مع الجماعة وهى : سلوكه مع غيره ، وإنتاجه فى عمله ، وطريقته فى التفاهم مع رفيق له من الجنس الآخر . فإذا كانت الأمراض قد ازدادت سوءاً منذ الزواج كان هذا دلالة على أنها لم تكن متهيئة للزواج لأن جل اهتمامها كان منصرفاً إلى نفسها .

والآن ما هو تاريخ الأسرة ؟ أما نحن أصحاب السيكلوجية الفردية فلا يعنينا كثيراً أن يقال لنا إن هذا الشخص قد اعوج لأنه ورث تلك الخصلة عن واحد من أسلافه ، بل نعنى كثيراً بالبحث عن القصور العضوى . ومع ذلك فإنا قلما نحصل على ما يكفى من المعلومات فى هذه الناحية .

« وقد دل تاريخ الأسرة على وجود أعراض العصاب من ناحيتى أهل الأب وأهل الأم » .

وهذا أمر هام إذ يدل على أن طفولة هذه السيدة كانت سيئة . والعصاب الذى كان الأهل مصابين به يعنى أنهم كانوا يقاتلون فى سبيل الرئاسة والحكم وإخضاع الآخرين واستخدامهم واستغلالهم . وهكذا يتعرض الأطفال حقا فى مثل هذا الجو لكثير من الأخطار . لكنى أود أن أذكر هنا أنه مع تعرضهم للخطر ، فليس من المحتم أن يلحق بهم الأذى ، ذلك لأنهم يستطيعون التغلب على الأخطاء والنجاح فى الإفادة منها . غير أن هناك احتمالا معيناً يدفعنا إلى القول بأن كيان الحياة بأكمله وأسلوبهم فيها سوف يتصف بالأثرة والأنانية على وجه من الوجوه .

« على أنه ينبغى أن لا يغيب عن الذهن أن تلك المعلومات وصلت عن طريق المريضة التى لم يكن موقفها إزاء أهلها ، على الأقل ، خلوا من التمييز الشخصى » .

لكنا نود أن نعرف موقفها هى ، فقد يكون موقفاً عدائيا كافحت فيه أهلها .

« فقد كانت تشعر بالحزن مثلا ، لأن كلا من أبيها وأمها كان وحيد أسرته ؛ لأن هذا كما ذكرت كان يعنى أنه لم يكن لها أعمام أو عمات أو أخوال تحصل منهم على هدايا كما يحصل الأطفال الآخرون من أقاربهم » .

هاكم امرأة تنتظر أن تأخذ على الدوام ، وهى هنا تكشف عن جانب كبير من أسلوبها فى الحياة . فهى من الطراز الذى يود أن ينال ويستقبل ،

لا أن يعطى ويبذل . وهذا الطراز يتعرض لكثير من الأخطار والعقبات فى الحياة وخاصة إذا قسم لمثلها أن تعيش مع رجل طموح .

« كان الوالد رجلا عاملا ، والأم سيدة مجدة تبذل مااستطاعت للإبقاء على كيان المنزل ، ومع هذا فإنها كانت تتجنب المسئولية فى أمر واحد : إذا احتاج أبناؤها تأديباً فضلت أن تترك هذا لزوجها » .

أى أنها لم تكن تشعر بالقدرة على ذلك ، فكانت تستخدم زوجها لإنزال العقاب . كما يحصل فى كثير من العائلات ، وما أسوأ هذا ! لأنه يدفع الصغار إلى الاستهانة بشأن الأم والاستخفاف بها .

« وكان هذا أمراً سيئاً — لأن الوالد كان مغرقاً فى السادية » .

ولست أظن أن السادية هنا يمكن أن تفسر على أنه كان يستمد إشباعاً جنسيا من ضرب الصغار ، بل على أنه كان فظا شديداً يبطش بهم . وهنا نستطيع أن نتبين الهدف الذى اتجهت إليه وهو إخضاع الآخرين ، فقد عرفت كثيراً من الحالات التى نشأ فيها بعض الناس منذ صغرهم وهم معتمدون على هذه الفكرة « إذا ما كبرت فلسوف أفعل هذا مع الآخرين — فأحكمهم وأسيطر عليهم » . هكذا اتخذت تلك الطفلة هدفها مما لاقته من أبيها ، إذ لا يمكن أن يكون لمثل الصبية المسكينة إلا فكرة واحدة عن القوة ، هى أن تعلو لا أن تنخفض ، وأن تسىء إلى الآخرين لا أن تتقبل منهم الإساءة .

« فإذا عرف من زوجته أن أطفاله قد أساءوا السلوك على أى وجه من الوجوه ، وخاصة فيما يتعلق بجيبه — مثل إسراعهم فى إبلاء نعال أحذيتهم — ضربهم ضرباً لا رحمة فيه » .

« وكانت النتيجة أن الأطفال كانوا يعيشون فى خوف مقيم من أبيهم وكانوا فى نفس الوقت لا يثقون بأمهم وعلة ذلك معروفة » .

فأين كانوا يستطيعون أن يتعلموا التعاون إذا افتقدوه فى أبيهم وأمهم .

ومع ذلك فلابد أنه كان فى نفس الصبية جانب يسير منه لعلها عرفته من أترابها لا من أهلها ؛ وكان هذا الجانب اليسير هو الباعث لها على قبول الزواج .

« ومع هذا فقد أكدت أنه كان والداً طيباً إلا فى ليالى الأحد حين كان يغلب عليه أن يعود إلى المنزل مخموراً » .

أى أنها كانت تفضل الوالد . ويخيل إلى من هذا أنها كانت كبرى إخوتها فالغالب أن يميل أكبر الأبناء بنتاً كان أم ولداً إلى أبيه لا إلى أمه . لأنه إذا أتى طفل آخر نزل الأول عن عرشه فحنق على أمه ولجأ إلى أبيه ؛ لكن هذا مجرد ظن علينا أن نؤيده بالأدلة .

« فيضرب عندئذ زوجته وأطفاله أيضاً ، ويهددهم تهديداً صريحاً بقطع رقابهم » .

فهى تقلد أباها فى « فكرة الإجبار » : تود أن تذبح أحداً : زوجها أو ابنها . ألم أذكر من قبل أن أباها قد أتاح لها الفرصة لإقامة غايتها من السيطرة على هذا المنوال . ولنلاحظ أن الوالد كان يهدد فقط . ولهذا أزعم أنى مصيب إذا رأيت أنها بقولها إنها تخشى أن تقتل أحدا ، لم يكن ذلك منها سوى شكل من السباب والتهديد .

« ولهذه النقطة الأخيرة أهمية خاصة إذا قورنت بأحد الأعراض التى ظهرت على « ا » . فقد كان مجموع أعراضها العصابية ينحو حقًّا من وجوه كثيرة نحو تقليد خصائص أبيها . فقد كانت كفيلة مثله بضرب أبنائها دون علة تدفع إلى ذلك » .

ولست أتفق فى هذا مع الطبيبة . فقد كان هناك ما يثيرها : كانت ترغب فى التفوق كما كان الوالد يرغب فيه ، هذه هى العلة . فلو أنى أولعت بالسيطرة فضاق بى الأمر ، لاستخدمت فى ذلك أطفالى فهم ضعاف لا حول لهم ، أستطيع أن أضربهم دون أن يضربونى .

« مع أن الواقع أنها كانت تأسف على قسوتها بعد ذلك » .

ويذكرنى هذا بما نسمعه كثيراً عن الندم وتأنيب الضمير . لكنا نحن أصحاب علم النفس الفردى لا نحفل كثيراً بهذا الندم ، ونقول بأنه أمر تافه كل التفاهة لا جدوى منه ، فما نفع الندم والصبى قد ضرب ، بل إنى لأزيد سخطاً إذا ما صفعنى أحد الناس ، ولم يكتف بذلك ، بل اعتذر . وليس هذا الشعور بالذنب إلا حيلة يخفى بها الناس ميلهم إلى السطوة على غيرهم ، ومن الخير أن نحذر الناس فى العصر الحديث من الإيمان بقدر الاعتذار ، كما أنا كثيراً ما نلقاه فى الأطفال المشكلين إذ يرتكبون ذنباً ثم يصيحون باكين ، يطلبون العفو والغفران ، ذلك لأنهم إن لم يعتذروا ضاق الناس ذرعاً بهم ، وامتنع عليهم تكرار ما يؤدون القيام به . كذلك هذه المرأة تسرف فى القسوة ثم تندم عليها ، فما جدوى ذلك ؟

« لكن هذا الشعور كان قليل الأثر أو معدومه فى منع تلك النوبات من الوقوع فى فرص أخرى » .

وهذا ما انتظرنا ، فليس الشعور بالندم سوى حيلة نجدها فى حالات الملانخوليا لكنها حيلة مكشوفة لا تفلح وهكذا ترون أن حدسنا قد صدق .

« وكانت « ا » ثانية إخوتها الثمانية — أربع بنات تبعهن أربعة صبيان » .

أما فيما يتعلق بالأطفال الثوانى فهم بصفة عامة — مع أنه ليس هناك قاعدة مضبوطة — أكثر طموحاً وكفاحاً حتى لكأنهم فى سباق يودون التفوق فيه على الطفل الأول . وقد ظننت من قبل أنها كانت أولى إخوتها لأنها كانت تفضل أباها . لكن هناك ظروفاً قد تدفع الطفل الثانى أيضاً إلى ذلك ، وخاصة إذا كان مدللا ثم رزقت الأسرة بطفل ثالث يحتل مكانه . ومن الأمثلة الطيبة على ذلك قصة يعقوب وعيسو فى التوراة . ومن بالغ الدلالة ما أثبتته الإحصاءات فى أمريكا من أن كثرة المتشردين الصغار هم من الأطفال الثوانى . فهم فى حلبة السباق يودون السيطرة والتفوق ولعل

هذا ما كان مع مريضتنا .

« وكانت وهى طفلة ، كما قالت ، سعيدة لا تحفل بشىء ، بشوشة فرحة قوية الصحة ؛ تختلف كل الاختلاف عن أختها الكبرى التى وصفتها بالصمت والتحفظ وهى خصائص فسرتها « ا » بأنها أثرة وأنانية » .

فهى تبدو لنا موفقة فى جهادها بينما أختها الكبرى طفلة مهزومة قد انكمشت لا تعول على شىء .

« ويظهر أن الوالدين كانا يريان عين الرأى إلى حد ما ، فكانا يعاملان البنت الكبرى بقسوة خاصة ، فكثيراً ما كانت تقع فى مشاكل ؛ وكان الضرب القاسى الذى ينزله بها أبوها يملأ « ا » خوفاً وفزعاً . وكانت بقية العائلة تحب « ا » حباً كبيراً إلا أكبر إخوتها الصبيان » .

أى الولد الأول الذى يحتمل أنه كان محل عبادة أهله وتقديرهم عند مجيئه ، الأمر الذى أحنقها كما يخيل إلينا .

« وكانت تعتبره كأختها تلك مملوءاً بالأثرة وعدم الرعاية لغيره . « فقد كان مختلفاً عنا جميعاً باستثناء « ت » (أختها الكبرى) بالطبع » .

أما اتفاقها مع غير هذين من إخوتها فيعنى أنها كانت تستطيع السيطرة عليهم وأن قيادهم لم يكن عسيراً عليها ، أما هذا الولد والأخت الكبرى فكانت تنفر منهما لأنها لم تكن تبسط عليهما سلطانها .

« التاريخ الشخصى : كانت « ا » كما ذكرنا قبلا طفلة صحيحة البدن ؛ كانت تفخر بقوة صحتها ، ومع هذا كانت تشكو من سن الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة من تضخم يسير فى الغدة الدرقية شفيت منه بعد ذلك » .

ها نحن نجد عيباً عضويا معيناً كما نلقى غالباً عند المرضى بالعصاب .

« وكان عملها فى المدرسة حسناً جدا ولم يكن من العسير عليها عند ذاك أن تجد كثيراً من الأصدقاء » .

وينبغى أن نشير هنا إلى أن أمثال هذه المريضة — على ما بهم من

أثرة وطموح — لا تعوزهم القدرة على التعاون عوزاً تامًّا . ولهذا لا نعجب إذا هى وفقت فى المدرسة مع غيرها فذلك ضرب من التفوق ، هذا إلى أنه من المحتمل أن أصدقاءها كانوا ممن يخنعون ويتبعون .

« وتركت المدرسة فى سن الرابعة عشرة ، وبقيت تقيم فى المنزل شهوراً تذهب إلى عملها الذى التحقت به كل يوم ، ثم تعود منه مسرورة إلى المنزل . لكنها عندما التحقت بخدمة أسرة وتركت المنزل بدأت متاعبها من جديد » .

فالخدمة فى أحد المنازل تتطلب الخضوع وهى لا تطيق ذلك بل تود أن تحكم وتأمر .

« وعقب التحاقها بذلك العمل بأسبوع واحد أصيبت بخراجات فى ظهرها بلغ من شدتها أن أمرها الطبيب بالعودة إلى منزلها » .

ولست أود أن أبالغ هنا فأنسب الخراجات إلى كراهيتها للعمل ، لكن الواقع أنه يحتمل أن تنزل بالمرء أمور فى المكان الذى ينفر منه . وقد وجدت ابنتى — وهى طبيبة نفسانية — بعد بحثها فى الحوادث والإصابات أن نصفها يقع لمن يكرهون المهنة التى يعملون فيها . فليس من الغريب إذن أن تصاب بالخراجات . . . ولن أطيل فى هذا .

« فعادت إلى منزلها مشفقة محاذرة ، إذ كانت تعرف أن أختها الكبرى لاقت استقبالا سيئاً جداً عند عودتها مرة إلى الدار بسبب مرضها . ومع ذلك سارت الأمور وقتاً ما . غير أنه سرعان ما سخط أبوها عليها ، حتى اشتد الحال صباح أحد الأيام عند دخولها المطبخ لتناول الإفطار ، فأقبل عليها أبوها دون تحذير وفى يده مجراف ينتوى ضربها به على رأسها . فولت من البيت وقد أخذها الفزع ، واختبأت بعيداً عن الأسرة بقية النهار فى فناء الكنيسة ، مما يحتمل أن يكون ذا دلالة على خوفها فيما بعد من النعوش والدفانين وكل ما يتصل بموضوع الموت » .

وهنا تظهر لنا فكرة جديدة ، فنحن نرى من ناحية معينة أن المرض والأعراض العصابية عند هذه المريضة اتهام توجهه إلى أبيها ، أدركت هى هذا أو لم تدركه . فكأنها تقول: « لقد عذبنى أبى عذاباً بلغ من الشدة حداً دفعنى إلى أن أكون على حالتى الحاضرة » . لكنه إذا كان الوالد مخطئاً فهل يخول ذلك ابنته أن تخطئ بدورها أيضاً ! هل هى علة ومعلول ؟ وهل هناك ما يلزمها بالمرض ويدفعها إلى الخطأ إذا كان أبوها قد أخطأ من قبل ؟ تلك أسئلة بالغة الأهمية لأنه ليس هناك فى عقلها علة صحيحة ؛ بل علة خلقتها هى خلقاً ، فقد ردت السبب إلى أمر لم يكن سبباً . فليست هذه العلة شبيهة بالعلة التى نلقاها فى عالم المادة ، بل لقد بدأ الشك فى قانون العلية فى عالم المادة نفسه .

« ومع هذا وجدتها أمها فى المساء وأقنعتها بالعودة إلى المنزل . واعتبر أبوها الحادث فكاهة وضحك عليها « لتغفيلها » . ومع ذلك فإنها لم تستخف بالمسألة ، وأقسمت ألا تكون عودتها إلى المنزل للإقامة فيه » .

وهذا تصميم آخر ، كأنها تقول : لن أضع نفسى مرة أخرى فى موقف يحكمنى فيه أحد . وهو ضرب من تفكير الأطفال الذى نجده على الدوام عند العصابيين من المرضى الذين يقوم تفكيرهم على التقابل فلا يحكمون على الأشياء إلا بالحسن أو السوء أو بالجمال أو القبح ، بل إن هذا الضرب نفسه من التفكير كان غالباً على الفلسفة اليونانية .

« وعادت بعد هذا الحادث إلى الخدمة فى أحد المنازل ، ويظهر أنها كانت تعمل فيه بجد وإتقان وتفضل الأعمال العسيرة . أما كرهها للأعمال التافهة كالتنفيض فقد نسبته إلى خوفها من كسر التحف وما إليها » .

أما ما كان يدور بعقلها فى الواقع فهو أنها فتاة قوية البدن لا يليق بها أداء التافه من الأمور ، وقد يفسر هذا نفورها من الزواج وهذا ما أطلقت عليه لفظ « الاسترجال » .

« وفى سن الثامنة عشرة خطبت إلى شاب يبدو أنها سيطرت عليه . ومع ذلك فقد كرهته على مر الزمن لما التمست فيه من تقتير ، وبعد عامين أو ثلاثة فسخت هى الخطبة وقذفت بخاتمها فى وجهه . (ومع أنا لاننتظر هذا من الفتيات) فقد ذكرت هى مفاخرة أنه ما زال يحمل لها وفاء مقيما ، وأنه بقى يتتبع أخبارها حتى الوقت الذى وفدت فيه تلتمس العلاج . وبرغم هذا الإخلاص من ناحيته لم تشعر بأى ندم على سلوكها بإزائه » .

« والتحقت خلال الحرب بعمل فى أحد مصانع الذخيرة حيث قابلت الرجل الذى تزوجته » .

ولعلكم تذكرون ذاك الرجل فهو من أصحاب العاهات . وبين النساء والرجال من يولعون بأصحاب العاهات أو السكيرين ومن إليهم حتى يشعرون بالتفوق ، إذ يحاولون حمايتهم ورفع شأنهم . غير أنى أود أن أحذر الفتيات من مثل هذا الحب ، إذ لا يمكن أن يقوم حب أو زواج وأحد طرفيه أدنى من الطرف الآخر .

« وكان مقيما حينذاك بأحد المستشفيات عقب إصابته فى القتال أثناء الحرب . فوجدت فيه مثلها الذى كانت تصبو إلى الزواج منه لاعتبارين هامين : فقد كان طويل القامة ولم يكن سكيراً » .

أما عن السكر فقد كانت تعافه لأن أباها كان سكيراً ، والناس يكرهون السكيرين لأنهم لا يستطيعون إمساك قيادهم . لكنا لا نستطيع أن نفهم لم كانت تحب طول القامة فلعل أباها كان طويلا أو كانت هى طويلة أو لعلها وجدت أن الأجدر بها أن تحكم رجلا فارع القامة . . .

ومن المحتمل أيضاً أن إصاباته قد صادفت هوى من حبها للقوة — فقد كان من أظهر خصائصها الخلقية رغبتها فى الحكم والقيادة .

« وسارت الأمور حيناً ما على ما يرام . غير أنه حين ذهب خطيبها إلى لندن كان يكتب لها خطابات تثير فى نفسها الغيرة لأسباب لا تعرفها » .

« فإذا كانت تود أن تحكمه وأن تكون وحدها موضع انتباهه، لما استبعدنا أن تثور بنفسها الغيرة لأتفه الأسباب ، حتى لا يخلعها عن عرشها عند هذا الرجل امرأة أخرى كما خلعها عن عرشها أخوها من قبل » .

« فلحقت به إلى لندن وقد أخذ منها البؤس والشك كل مأخذ . وبذلت كل ما فى وسعها للاحتفاظ بخطيبها . وبذلك بدأ الموقف يتغير فلم تصبح هى صاحبة الدور الفعال فى الصلة بينهما فحسب ، بل إن الرجل بعد أن كان رقيقاً عطوفاً أصبح مهملا لا يأبه لها » .

« فكان يضرب لها المواعيد ويصل إليها متأخراً أو يتخلف عنها تماماً . فازدادت شكوكها وكثر بكاؤها . ووصلت الأمور إلى أسوأ حال لما تخلف للمرة الثانية عن ميعاد ضربه لها ، بينما بقيت هى تنتظره ساعات فى ضباب إحدى ليالى الشتاء وزمهريرها » .

وليس من شك أن هذا أمر يحنق ويثير ، وأن الرجل هو أيضاً لم يكن خليقاً بالزواج .

« فلما علمت منه فى اليوم التالى أنه لم يوافها ، لأنه كان مع أصدقاء له ، أخبرته وقد أخذها الغضب أنها لا تود أن تقع عليه عيناها بعد ذلك . ومع هذا فإن محاولتها فسخ الخطبة لم تتم ، وقد شكرت الظروف على ذلك حين كشفت بعد ثلاثة أسابيع أن بين أحشائها جنيناً » .

وهنا أود أن أشير إلى العلاقات الجنسية قبل الزواج ، فأنصح بالبعد عنها ، فذلك خير وأبقى لأنها على الدوام مجلبة للعثرات والمتاعب .

« فالتاعت واستيأست لذلك ، وفكرت لأول مرة تفكيراً جدياً فى الانتحار . فحاول خطيبها أن يخفف عنها ووعد بالزواج منها ، وتم هذا فعلا بعد ذلك بقليل . لكن قامت مشكلة إقامتها بقية شهورها ، وكانت تخشى العودة إلى دار أبيها الذى كان يهدد بقطع علاقته بمن تعوج عن الصراط من بناته . ومع ذلك فقد أذن لها بالمكوث لديهم واشتد بها البؤس طول

هذه الفترة وزادت تعاستها حين رزقت بولد ، فقد كانت هى وزوجها يرجوان أن يرزقا بنتاً » .

وهذا أمر لم نكن نتوقعه ، ولا يمكن أن نجد له تفسيراً إلا عند هذين الزوجين بل لعلها كانت تضيق أيضاً لو أنها رزقت بابنة بدل ولدها .

ويمكن أن نشير عابرين إلى أن رغبتها فى ابنة وما تبع ذلك من يأس ارتبط بعد ذلك بكراهيتها لبنيها .

لهذا لا بد أن نرد ذلك إلى عدائها للرجال منذ طفولتها الأولى، فلعلها كانت تنظر كما ينظر العصابيون إلى الرجل كنقيض للمرأة ، فهذا الضرب من التفكير عن طريق التقابل شائع مألوف .

« وعادت بعد ذلك إلى لندن تعيش مع زوجها ، ومع أن علاقتها مع جيرانها كانت طيبة أول الأمر إلا أن شعوراً بالقصور بدأ يجثم فى نفسها ، ويبدو أن هذا كان راجعاً إلى أن زوجها كان محبوباً يميل إليه كافة الناس . وصار يخيل إليها أن كل همسة أو نظرة تعنى ضرباً من النقد والتحقير لها لهذا تجنبت الاتصال بالناس . هذا إلى ما كان يكثر من الشقاق بينها وبين زوجها ، ومما يجدر التنويه به أنها عقب كل شجار معه كانت تلجأ إلى الفراش وتهدد بقتل نفسها وقتل ابنها إذا لم ينصلح الحال . واشتدت الأمور سوءاً وبدت عليها أعراض العصاب واضحة ، حتى أخذها زوجها إلى أحد الأطباء فشخص مرضها على أنه عسر هضم عصبى وأشار بخلع جميع أسنانها » .

يخيل إلى أن هذا كان عقاباً لا علاجاً طبياً .

« وبعد قليل من التردد ذهبت تصحبها إحدى صديقاتها إلى المستشفى ، لكنها رفضت بعد نوبة هستيرية أن تمس أحد من الأطباء أو الممرضات فيها ، فرفضت صديقتها أن تصحبها بعد ذلك . فذهبت وحدها فخلعوا لها مرة ثلاث أسنان أو أربع ، وفى المرة التالية أصيبت بنوبة هستيرية

أخرى بعد أن خلعوا لها اثنتى عشرة سنة لأنها رأت وشعرت بالعملية كلها رغم تخديرها » .

« وعقب ذلك بقليل رزقت ابنها الثانى » .

وكان هذا فى وقت الأزمة حين كانت تجاهد بشدة للاحتفاظ بمكانتها .

« فاشتد يأسها لأنه كان صبياً ، وقد كانت موقنة أن الطفل سيكون بنتاً . وازدادت الأعراض العصابية وضوحاً عليها . وكان سخطها على الصبى مقدمة لما شعرت به من رغبة بعد ذلك فى قتل هذا الطفل » .

ولعلكم تذكرون أنى عند الحديث عن ظهور الأعراض الأولى على المريضة قلت إنى كنت أفهم علة ظهورها لو رزقت بطفل ثان، لأن أهميتها هى عندئذ سوف تنخفض بينما هى تود البقاء مركزاً للرعاية والاهتمام .

« وزاد حالتها سوءاً أن جاراً لعبت برأسه الخمر هددها بالقتل وبيده سكين ، فرفضت البقاء فى المنزل ، ولم يكن من المستطاع أن يجدوا حينذاك سكناً آخر » .

والحق أن مثل هذا الوسط لم يكن ملائماً لامرأة تحب السيطرة ، فقد كان الجيران يكرهونها ، وأنتم ترون أنه قد بدأ يظهر عليها أعراض من جنون الاضطهاد .

« فتركت زوجها حيناً ما وذهبت وطفلاها للإقامة مع أم زوجها . لكن هذا الحل لم يكن موفقاً . . . فذهبت للإقامة مع أهلها . وعقب ذلك استدعاها زوجها لإصابته « بتهافت عصبى » فاحتاج إليها كى تمرضه . وفى نفس الوقت استطاعوا أن يجدوا لهم مسكناً يقيمون به » .

وقد تكون إصابته بالتهافت العصبى وسيلة لجأ إليها لإقناعها بهذا المسكن الجديد .

« لكن عقب عودتها بقليل أصيبت بتلك الوساوس والإحساسات التى شغلتها عن كل شىء آخر ووقع ذلك عند ما رأت حلما مفزعاً عن

ملائكة يحيطون بنعش » .

وهذه فكرة الموت ، لكنكم قد تعرفون مرماها ، فهى تؤثر بذلك على زوجها إذ يجب عليه أن يزيد عنايةً بها واهتماماً بأمرها ، وفى ذلك ما تبغى من سيطرة وسطوة .

وهنا انتهى الدكتور أدلر من تشخيصه للحالة . غير أن الطبيبة التى كانت تعالج تلك السيدة قد أوجزت فى الكتاب علاجها إياها . فقالت : إن المريضة وفدت إليها عقب ذلك الحلم بثمانية عشر شهراً ، وكان المرض قد ازداد سوءاً فكانت ترتجف وتهلع من رؤية من لا تعرفهم ، ولا تتكلم إلا بصعوبة بالغة ، فإذا اتجه الحديث نحو أى أمر خاص شخصى ازداد اضطرابها واشتدت حالتها العصبية حتى بدا أنها لن تواصل العلاج ، ومع ذلك فقد أخذت منذ ذلك الوقت تتردد على الطبيبة .

وكانت تتحاشى الإشارة إلى طفولتها لما ظهر بعد ذلك من شعورها بالإثم عن بعض العادات الجنسية التى كانت تمارسها فى تلك الفترة . وكانت أية إشارة إلى الانتحار أو القتل تزيد حالها سوءاً واشتد خوفها من الجنون بعد ذلك .

لكنها ، على مر الزمن ، حين وجدت أنها تستطيع الإفصاح عما يدور بنفسها دون خشية النقد ضعفت قوة الرقيب فى نفسها ، وصارت تسرد كثيراً من مشاعرها المكبوتة . وتعلمت بذلك كيف تواجه نفسها وخصائص شخصيتها على مختلف وجوهها ، وهكذا بدا على حالتها النفسية تغير ملحوظ ، فازدادت تسامحاً وعطفاً على أسرتها ، وبدلا من عوزها إلى الثقة بالنفس وحيائها وتجنبها جيرانها ، تغير الأمر إلى نقيض ذلك وبدأت تشعر بالسعادة وتستمتع بالحياة .

ومع أن هذا التحول كان بطيئاً ، إلا أنه كان واضحاً بعد عدة شهور فضعفت شدة ميولها إلى القتل ، وانعدم تفكيرها فى الانتحار ، ونقص

خوفها من الموت . ومع أن ولعها بالنظام والنظافة ما زال باقياً إلا أن صبغته المرضية قد ضعفت ضعفاً كبيراً . كما صارت أكثر تسامحاً مع أولادها وأقل سخطاً على عبثهم ، وأرضى نفساً إزاءهم ، هذا إلى زيادة شعورها بالمحبة لزوجها وميلها إلى صلاته بها ، ورغبتها فى التعاون معه بدلا من السيطرة عليه .

وهكذا استعاضت تلك السيدة عن المرض وأعراضه ، بنظرة جديدة إلى الدنيا فيها من الشجاعة ما يبعثها على حب الحياة والاهتمام بها .